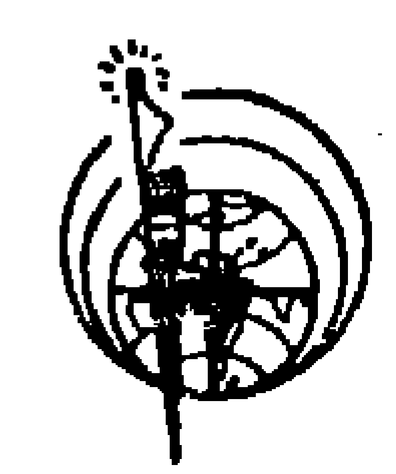

٢
دار
الموقف العربي
لمحة عامة
إلى مصر
ا. ب كلوت بك

لمحة عامة
إلى مصر ٢

أ. ب. كلوت بك

ترجمة
محمد مسعود



دار الموقف العربي

الطبعة الثانية

١٩٨٢

النـــــاشر
دار الموقف العربى
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع القصر العينى
القاهرة. ت ٢٣٢٥١

هــــذا الـــكتاب

هذا هو الجزء الثانى من كتاب « لمحة عامة الى مصر » الذى الفه كلوت بك الطبيب الفرنسى الذى جاء الى مصر فى أعقاب الحملة الفرنسية وبداية عصر محمد على ... وهـــــذا الجزء يتناول بالتفصيل أنماط حياة السكان المصريين .. ودياناتهم .. وتشريعات هذه الديانات كما يتعرض للسلوك الاجتماعى لسكان مصر فى هذه الفترة ... ويصف بشكل دقيق الطبقات الاجتماعية ســـــواء من خلال تصميم المساكن .. وممارستها لحياتهم اليومية أو من خلال تعاملاتهم بأدق التفاصـــــيل حتى على مستوى المتجر والقهــوة والحمامات الشعبية ... الى التعريف بالمدن الرئيسية وعــددها وكذلك القرى والحرف فى كل من الوجهين البحرى والقبلى معرفا

بتاريخ كل مدينة من هذه المدن . ويتناول الكتاب المسائل الدينيـة للرسالات السماوية تناولا خاصا فهو يعرض لمسألة الجن والبعث والحساب والوحدانية والملائكة .

كما يعرض لمسألة القضاء والقدر وصلة الرجل بالمرأة والقضاء والقضاة فى مصر فى هذا التاريخ الذى شهد عصرا من عصــــور النهضة فى مصر الحديثة « عصر محمـــــد على » وهى رؤية لمؤلف فرنسى شارك وتابع هذه النهضة عن قرب .

ويعتبر الكتاب أحد المراجع الهامة والرئيسية لكل متــابع أو مهتم بالدراسات التاريخية .. للمكان أو السكان ...

واندار اذ تختلف مع المؤلف الفرنسى حول بعض ما جاء فى هذا الكتاب كمقولاته عن علاقة المسلمين بالمسيحيين أو رؤيتــــه لقدرات الانسان المصرى فى هذه المرحلة .. انما ترجــع ذلك الى ان هذه نظرة الأجنبى دائما حتى ولو كان مفكرا ، يخـــدم فقط أغراض الاستعمار والمصالح الاجنبية .. وهو لم يختلف منذ قدم التاريخ وحتى نهايته .. المستعمر هو المستعمر .. وأدواته هى ادواته وأخطرها البعثات الثقافية التى تمهـــد الطـــــريق أمام الاستعمار الاقتصادى والسياسى .. وهو ما يجب أن نفتح أعيننا عليه بالنسبة للمرحلة الراهنة .. اننا نختلف مع المؤلف الفرنسى حول بعض ما جاء بهذا الكتاب .. ولكننا نقدمه كما جاء بقلم المؤلف عملا بالامانة التى نحرص عليها فى اعادة طبع كتب التـــراث .. وكتاب « كلوت بك » من هذه الكتب الهامة حتى وان اختلفنا حول ما جاء به .

الموقف العربى

الباب الثالث

السكان والمساكن

والمدن والقرى فى مصر

١

السكان

سكان مصر فى العصور القديمة — السكان الحاليون — أسباب قلة السكان فى القطر المصرى — ما اتخذه محمد على من الوسائل لانماء عددهم — المواقع التى تحول فى الوقت الحاضر دون ظهور اثر الاصلاحات التى قام سموه بها .

١ — سكان القطر المصرى فى العصور القديمة

محقق أن سكان القطر المصرى أيام مجده القديم كانوا كما فى جميع الممالك والولايات الراقية كثيرى العدد منيعى الجانب بكثرتهم . ولو سلمنا بما ذكره كل من استرابون وديودورس الصقلى

لكان عددهم فى عهد الملك سنيزوستريس وفى أيام البطالسة يتراوح من سبعة ملايين الى ثمانية . وقد بالغ مؤرخو العرب فى تعداد سكان القطر المصرى مبالغة أفضت بهم الى زعم أن عدد سكان مصر كان ابان الفتح الاسلامى يناهز العشرين مليونا من النسمات وأن عدد مدنها وقراها كان نحو العشرين ألفا .

وبعيد عن الشك أن هذا التقدير مبنى على ما عرف به الشرقيون من المبالغة والاغراق على أنه لا يبعد كثيرا عن الصحة وربما كان مصيبا لشاكلة الصواب اذا رجع فى تقدير سكان قطر ما على المتوافر فيه من الوسائل الطبيعية الكافية لقضاء حاجاتهم المعيشية فيكون أولئك المؤرخون قد اعتمدوا فى تقديرهم على ما استنتجوه من اتساع أراضيها وطبيعة تربتها ومقدار مساحتها القابلة للزراعة .

ولما كان مسطح مصر يعدل على هذا الاعتبار السدس من مسطح فرنسا وكان بمثابة واد خصيب قابلة مساحته للزيادة كما هى قابلة للنقصان فبالزراعة وحدها يستطاع توسيع نطاقها بايصال مياه النيل الى الصحراء لاخصاب رمالها . فاذا أحللنا محل الاعتبار هذه العناصر التى تتألف منها الثروة الداخلية للبلاد فانى أرى قريبا من الاحتمال أن يكون عدد سكان مصر قد بلغ قبل هبوطها فى هاوية الانحطاط الى نحو الثلث مما قدره أولئك المؤرخون من العرب .

٢ ــ السكان الحاليون

فى بداية هذا القرن أى فى عهد الحملة الفرنسية قدر عدد سكان القطر المصرى بما لا يتجاوز مليونين من النسمات . نعم لم

يكن هذا التقدير مبنيا على شيء من الدقة والضبط اذ قد ثبت بالاحصاء ان عددهم الآن يبلغ ثلاثة ملايين من النسمات .

ومن المستحيل الرجوع بهذا الرقم الى مصدر صحيح وبيان مضبوط لحرمان مصر فى الوقت الحاضر من نظام تضبط بمقتضاه الاحوال المدنية لكل فرد من الاهلين ، وانما التقدير عمل بحسب ما يستنتج من الاحصاء التقريبى لعدد المنازل فقد ذهبوا الى أن منازل مدينة القاهرة يحتوى كل منها ثمانية أشخاص ومساكن الارياف أربعة على حساب المتوسط فى الجهتين . وقدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمائة الف نفس الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح . اما مجموع السكان فيمكن تقسيمهم على الوجه الآتى :

المصريون المسلمون	٢٦٠٠٠٠٠
المصريون المسيحيون اى الاقباط	١٥٠٠٠٠
العثمانيون اى الاتراك	١٢٠٠٠
العرب أى البدو	٧٠٠٠٠
السودانيون	٢٠٠٠٠
البرابرة	٥٠٠٠
الاحباش	٥٠٠٠
المماليك الجراكسة	٥٠٠٠
اليهود	٧٠٠٠
السوريون	٥٠٠٠
اليونان الرعية	٣٠٠٠
الارمن	٢٠٠٠
اليونان الافرنج	٢٠٠٠
الايطاليون	٢٠٠٠
المالطيون	١٠٠٠

الفرنسيون	من ٧ الى ٨٠٠
الانجليز	من ٨٠ الى ١٠٠
النمسويون	من ٦٠ الى ١٠٠
الروسيون	من ٢٠ الى ٣٠
الاسبانيون	من ١٥ الى ٢٠
السويسريون والبلجيكيون والولنديون والبروسيون والدانيماركيون تقريبا	١٠٠

وأكرر القول هنا بأن هذه الارقام ليست رسمية وما قصدت بايرادها الا تصوير فكرة تقريبية عن السكان فى القطر المصرى .

٣ ــ أسباب قلة عدد السكان فى مصر

لا يسع المرء اذا قارن عدد سكان القطر المصرى فى العصور القديمة به الآن الا التساؤل ، والحزن ملء فؤاده ، عن أسباب النقص السريع الذى اعترى النوع البشرى فى بلاد خولتها الطبيعة كل العطايا والمنح . ولما كان هذا القطر محصورا بين صحراوين فهل يمكن القول للاجابة على هذا السؤال بأنه يتنازل شيئا فشيئا عن أراضيه ليحتلها ذلك المغير الذى لا يعرف للرأفة والشفقة معنى ؟ وهل صحيح ما يزعم بعض علماء طبقات الارض (١) من أن الناموس الطبيعى يقضى بأن تغمر جهات الوجه القبلى بالصحراء التى سبق لها أن وارت تحت رمالها شطرا كبيرا من اقليم طيبة القديم وأن النوع البشرى قد طاردته فأخرجته من مواضعه وأماكنه القديمة تلك القوة التى لا غالب لها . هذا ما لانعتقده وانما الذى نسلم به أن بنى مصر يستطيعون التغلب على

---

(١) راجع كوفيين فى خطابه على التقلبات التى تناولت سطح الارض .

الصحراء فاذا كانت هى الغالبة على أمرهم فما ذلك الا أمورهم لجمودهم وتراجعهم عن مغالبتها بما استنبط فى هذا العصر من ذرائع التقدم ووسائله .

الحياة فى مصر هى النيل والموت هو الصحراء . والنيل هو الذى اوجد مصر من العدم ، فهو اذن روحها ولا يزال كذلك . أما الصحراء فانها اذا تركت الى القوة التى تدفعها نحو الارض الخصبة فانها لا تلبث أن تلتهمها وتفنيها شيئا فشيئا فى ذاتها ولكن النهر يستطيع التغلب على الرمال باخصابه اياها بمياهه فمن الواجب للاحتفاظ بمصر الجميلة التى توغل بمقدار مائتى فرسخ فى البحار الرملية بل لتوسيع نطاقها معارضة قوة الصحراء بقوة النهر ودفعها بها . ولا ريب أن رفاهية مصر وزيادة عدد سكانها يتوقفان على حسن تدبير مياه النيل بل هما مرتبطان وثيق الارتباط باتساع نطاق الرى وتعهد احواله ، فلتتيسر موالاة هذه المصالح الحيوية الجليلة الخطر بالرعاية ومواصلتها بالمراقبة الدائمة لاغنى عن مشاركة القدرة للفكرة واتحادهما معا وأن تكون الحكومة مصدر الاثنتين .

فمصر اذن أكثر البلاد احتياجا الى تدبير أمورها بمعرفة حكومة عاقلة مدبرة . ووجودها المادى وحفظ كيان تربتها الزراعية وبالتالى نمو عدد سكانها يتطلب الهمة فى العمل والمثابرة عليه من القابضين على زمام أمورها . ولكن قضى الله أن لا يوجود على وجه الارض بلد اختل نظام الحكم فيه منذ عشرة قرون اختلاله فى القطر المصرى . بل لا بلد شهد فى مدد قصيرة تناوب السلطات المختلفة مثله على استلام زمام أموره على ما عرفت به من شدة الهمجية والميل الى التخريب مع الدعة والتهاون والغباوة فى ادارتها (١) .

---

(١) الناشر : يقصد الكاتب الاشارة الى السلطات وليس الشعب .

واذا بحثت عن اسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فانك لا تلبث أن تتأكد رجوعها كلهـا الى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع الى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والافساد حتى ضاع الغرض النافع المقصـود منهـا .

فاذا كان فى مصر أسر شهدت حقولها ومزارعها وقد علتها من الصحراء طبقة صيرتها غير صالحة للزراعة حتى اضطرت أن تهجر مواطنها وأماكن عزها ، واذا وجدت أسر غيرها قد أنهكها الفقر المدقع واضناها الجوع حتى كاد أفرادها يتلاشون عن آخرهم للسبب المتقدم فما الخطأ فى ذلك الا خطأ السـلطة ولية الامر أو بعبارة أخرى خطأ حرمان البلاد من سلطة جديرة بأن تتحلى بهذا الاسم .

واذا كانت الاوبئة على تعددها واختلافها قد تحيفت القطـر المصرى وفتكت بأبنائه اذرع فتك واتخذته لنفسها مستقرا ومقاما ، فمن ذا الذى تقع على عواهنه مسـئولية الاهمال فى اتخـاذ الوسائل لدفع ضررها اما بالصيانة والوقاية واما بالمكافحة ؟ بل من ذا الذى يحاسب على جهله وغفلته فيكون اثمه غليظا وقصاصه عليه عبرة ظاهرة للناس ومثلا مضروبا ؟ أن عـلى رأس تلك الحكومات ان وجدت تقع اثقال هذه العبرة فان لم تكن موجـودة فقد حق للناس ان يرفعوا الصـوت بالشكوى والتذمر من سـوء الحال وشر المآل .

ولقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلت فى مصر محل النظام أن شيعا كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحسـام ما انتحلوه لانفسهم من حق التصرف فى نفوس الاهلـين وايرادهم موارد الهلاك . ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابهـا

وقوتها وقد ضيق عليها الانفاس اولئك الالوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين ؟ ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله الا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب اذ أصبح ميدانا مستمرا للحروب الاهلية ومجالا تعبث فيه شيع الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد .

٤ ـ محمد على ووسائل زيادة عدد السكان

محقق انه لاقامة أركان سلطة قوية فى بلد تدهور فى مثل هذا الدرك من الانحطاط الادبى والمادى ، وايجاد وحدة متينة العرى حيث ذهبت وحدة كل شىء بددا ، بقوة الفوضى التى تعاقبت على مدى الاجيال ، وتخويل هذه السلطة الجديدة من الحياة ما يكفى لضمان استمرار تأثيرها بانتقال التقليد بها من طريق الوراثة الى سلالة اسرة واحدة ، لا يكون مثل هذا العمل الجليل على ما يتراءى لى الا عملا ذا عبقرية ساطعة عجيبة والذريعة الفريدة لبعث مصر ثانيا الى الوجود وزيادة عدد سكانها وقد كأن هذا قصارى ما يستطاع أن ينتظر من محمد على بل لم يكن لاحد الحق فى أن يطالبه فى هذا الموضوع بأكثر مما عمل .

ومع هذا فان خصومه وشانئيه لم يكفوا عن توجيه التهمة اليه بأنه استنفد قوى البلاد المصرية واستدر حلابها بل ذهبوا الى أنه قد أتى اثما غليظا لتنقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية مالا تتسع للانفاق عليه مالية البلاد .

فاذا كان من المسلم به لاعادة مصر الى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة فى سالف الازمان من البدء قبل كل شىء بانشاء حكومة قوية على أسس وطيدة فلا بد من غض النظر والتسامح حيال الوسائل التى استعان محمد على بها على تعزيز سلطته بالقوة التى تكفل لها الاستمرار .

وليس بغارب على فكر احد ان مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة »
لمن المبادىء التى تحق على البلاد المتوحشة التى يخضع كل شىء
فيها لتحكم الاستبداد الفعلى بل والتى لا تزال كلمة الحق العام فيها
من الكلمات المجهولة او من اللغو الباطل ، فمن عجز المنطق وقلة
الذمة وسوء النية ان يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الامة من
الآلام الوقتية ويصيبها من الاضرار الزائلة التى يؤدى اليها تنفيذ
مشاريعه الكبار وليست هذه الاضرار والآلام الا نتيجة الامراض
المزمنة التى أخذ على عاتقه تطهير مصر من ادرانها وصيانتها من
عواقبها الوخيمة .

نعم ان مصر قليلة فى عدد السكان الآن ولكن ليس فى استطاعة
الوالى ابتكار ما يؤدى الى زيادة عددهم فورا . اذ من المقرر
أن المدنية لا تبلغ الى حد الكمال حتى فى أكثر الظروف والاحوال
ملاءمة لها الا بتأثير الزمن . ولم يقل أحد ان شعبا نهض من عثرته
وبدل شبابا من هرمه وقوة من ضعفه باحدى وسائل السحر فمما
يدعو اذن لاكبار محمد على وتكريم ذاته أن جعل وسائل التقدم
والاصلاح ممكنة فى مصر وأن يتخذ منها قوة تحل محل الضعف
ويستمد منها حياة وعمرانا يقومان مقام الموت والخراب .

فمحمد على لم يستنفد رجال وادى النيل بل دأب على مايوجب
كثرة عددهم . ولقد كان نابوليون يقول : « اذا انقضت عشرون
سنة على مصر وهى بيد المماليك يتصرفون فى ادارتها على ما تشاء
أهواؤهم فانها تكفى لخسارة ثلث أراضيها الزراعية وخرابها »
ولكن « محمد على » عرف بحكمته ودرايته كيف يوقى مصر شر هذا
الرأى اذ شق الترع الكثيرة التى حملت الى الجهات القصية من
بلاد الارياف عناصر الخصب والرخاء ، وادخل التحسين على
نظام الرى فأصابت حسناته القفار والصحارى فزادت محصولات
مصر زيادة بالغة ، واستدعى اليه الاطباء الاجانب لاستئصال

شأفة الامراض ، وأنشأ مدرسة للطب ومستشفيات عديدة .وكان داء الجدرى قبل ولايته يحصد الثلث من عدد الاطفال فبما اتخذ من وسائل المكافحة والوقاية زال هذا السبب الذى كان من أهم أسباب نقص السكان اذ تقرر تلقيح المولودين وغيرهم بالمادة الجدرية ، وحال بين الموظفين والتسلط على الاهلين بالظلم والعسف وساد النظام التام فيما خضع لحكمه من بلاد افريقية التى ظلت فيما سبق نهبا مقسما وفريسة بين القبائل التى كانت كالكلاب المسعورة فى الشره الى الغنائم . وساد الامن وخفقت ألوية النظام بحيث أصبح ساكنوها متقلبين على مهاد الراحة والنعيم بل أهنأ بالا منهم فى أى بلد من أوربا ساد فيها النظام واستقر الامن على أوطد أساس .

٥ ــ موانع ظهور الاصلاحات التى قام بها الوالى

ان قوات مصر العسكرية هائلة فى الحقيقة ولكنها لا تنهض دليلا يستند اليه القائلون بأن الجندية المصرية نظام داع الى نقصان عدد سكان القطر . فان الفلاح يجد فى الجيش الذى هو أحد جنده هناء ونعيما يبعد أن يكون متمتعا بمثلهما فى بيته وعدد الوفيات بين الجنود أقل منه نسبيا بين الفلاحين . ومن جهة أخرى فانه من المسموح به لرجال الجيش التزوج وهم فى الغالب متزوجون الآن .

ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر الى مزاولة أعمال الزراعة ولولا أن «محمدعلى» بحاجة الى الدفاع عن استقلاله ضد ما يلاقيه من سوء الارادة والنية ، بل لو كان من المسموح له أن يتخصص للعناية بشئون الاقاليم الواقعة تحت حكمه وأن يوجه اليها كل خاطره لكفاه الزمن القصير لينشر على أهليها أجنحة الهناء ويغدق عليهم الثروة واليسار .

ولقد تم اليوم انشاء الحصون ودور الصناعة وأقيمت المبانى العمومية والاشغال الاساسية ودفع ما استلزمته الادوات من النفقات فلم يبق الا أن تقطف مصر ثمار المزايا المنتظرة من الاصلاحات الحديثة اذ لم تبق الحياة السياسية لصاحب تلك الاصلاحات على محك البحث والمناقشة من غير انقطاع . أما المصائب والآلام التى ما برحت مصر تنوء بها فأوربا وحدها هى الكفيلة برفع هذه الأصر عنها اذا أرادت أن تحسم المصاعب الناشئة عن المسألة الشرقية حسما نهائيا جازما (١) . فاذا لم تكن مصر حتى الآن تستطيع السير بقدم ثابتة فى طريق السعادة والمدنية فما ذلك الا لان الدول الغربية هى التى يرجع الامر اليها فى تعضيدها التعضيد النهائى بوضع حد لما نجم من المتاعب والمشاق عن بقاء الحالة السياسية الحاضرة على ما هى عليه بالنسبة لها مقرونة بما تتكبده من القلق الشديد على مصيرها .

٢.

منازل السكنى والمبانى العمومية

منازل المدن — مظهرها الخارجى — باب الدخول — الشبابيك الجديدة — السطوح — صحن الدار — حجرة النساء — بيوت القرى — المساجد — الاسبلة والاحواض والحمامات — الاسواق والقهوات والوكائل .

٦ — منازل المدن

منازل المدن بوجه عام أفسح منها فى القرى واجمل . وهذا الفارق لما يلفت النظر فى القطر المصرى الذى يشكو سكانه من

---

(١) الناشر : انها وجهة نظر المؤلف فى الفترة التى أصدر فيها كتابه .

أهل القرى الفقر ويعاونون الفاقة على وجه يخيل معه أن الهناء والرخاء قد فارقا ربوعهم ليهبطا المدائن الكبرى ويستتيرا فى ظل سكانها تبعا لهم وطوعا لارادتهم .

ومواد بناء المنازل فى المدن الاحجار العادية وحجر الجص . وهما يؤخذان من الجبال المجاورة لها ثم من حجر الآجر المطبوخ بالنار أو المعرض لحرارة الشمس .

وليس لتلك المساكن غالبا سوى دور أرضى وطابق علوى وقلما شيد فوق هذا الطابق طابق ثان لان كل دار لا يسكنها الا أسرة واحدة . وسيدرك القارىء على أيسر وجه سر هذه العادة متى علم أن المسلمين نزعت بهم التقاليد الى قصر الحياة البيتية على العزلة وقطع الصلة مع الاغيار فهم يؤثرون أن تكون لكل منهم داره كى يستطيع اغلاق بابها عليه دفعا لكل صلة تترتب على المخالطة او ما تستتبعه من المودة .

٧ — المظهر الخارجى للمساكن

لما كانت دور المسلمين مقتصرة على ما ذكر من المصلحة الذاتية فمن الطبيعى أن تختلف فى أسلوب بنايتها وتوزيع حجراتها ومظهرها الخارجى عن غيرها من المساكن وأن يقصد بترتيب أوضاعها وتنميق زخرفتها الى توفير الهناء الذى يتحرى أربابها أسبابه وجعلها مباءة لن تصل اليها اشعة أبصار المتسمعين والمتسقطين . فانه لم يراع فيها مثلا مجاراة أذواق الجمهور فى أن تكون على نمط من أنماط البناية الهندسية الصحيحة فتوى اغلبها لهذا النقص الفاضح مشيدا بحكم الجزاف والمصادفة فى شوارع غير معتدلة . ودور الاغنياء منها كثيرا ما يرتد الطرف عنها وهو حسير لقبح منظرها وحقارة مظهرها وخلوها من كل اثر للتناسق

أو الزخرفة ولكنها فى مقابل ذلك تحتوى من الداخل أجمل ما يقع البصر عليه من الزخارف وثمين الرياش ، وربما كان لاغفال شـــأن المظهر الخارجى للمنازل سبب آخر غير قلة اكتراث أصـــــحابها بميول الجمهور وأذواقه وهو اتقاء مطامع العظماء وأصحاب البطش بتزهيدهم فى التطلع الى ما يستره القبح الخارجى من الجمـــــال الداخلى . فلقد تبين الشرقيون بالتجربة الطويلة ما يتهددهم من الخطر فى أموالهم وأعراضهم اذا امتدت انظار الاقوياء الى ما وراء جدرانهم القبيحة من مجلس النفائس وثمين الاعلاق وجميـــــــل المقتنيـــــات .

٨ — باب الدخــــول

مداخل هذه المنازل أبواب واطئة جدا تفتح دواما الى الداخل وتتألف من دفة واحدة بحيث اذا فتحت وقف نظر الناظـــر دون جدار قائم تجاه المدخل والى جانبه منفذ يوصل منه الى داخــــل البيت . والابواب فى هذا تغلق بعارضة متينة من الخشب تجرى فى مجراها فتمر بالباب كله على اتجاه العرض فاذا أريد فتـــــح الباب أدخلت فى مجراها واذا أريد اغلاقه سحبت منه وهنـــاك أيضا مزاليج من أصناف مختلفة لا أرى فائدة من ايراد وصــــــفها فى هـــذا المقـــام .

٩ — الشـــبابيك الحـــديدية

لواجهات المنازل نافذات كبيرة ركبت فيها قضب حديد متشابكة ضيقة الثقوب تؤذن للهواء والضوء بالنفاذ الى داخل الحجـــرات ولكنها تحول دون رؤية ما وراءها من الاشخاص أوالاشــــياء . والطابق الذى يلى الدور الارضى هو الذى توجد النوافذ به عادة

وهو بارز الى الامام بنحو قدمين أو ثلاثة أقدام فيتكون من هـــذا البروز شرفة مستورة لا يمتد البصر الى ما وراءها . والمشربيــان التى تركب عادة فى هذا الجزء البارز عبارة عن قطع صـــغيرة دقيقة من خشب المخروط تعشق بعضها فى بعض بحيث تتــألف من مجموعها أشكال ورسوم متشابكة لطيفة المنظر . وفى بيــوت الفقراء تتخذ حواجز النوافذ من البوص أو سعف النخل . أما دور الموسرين ففيما عدا الحواجز الحديدية توجد بها أبواب من الزجاج تحول دون نفاذ العثير الى الداخل .

١٠ ـ الســـطوح

لـــا كانت سقوف المنازل فى مصر مسطحة فقد استتبع ذلك ان تكون سطوحها مسطحة كذلك ومن ثم أطلق عليها هذا الاسم. وتحيط بالسطوح ذروة (دورة) بارتفاع الانسان وتتخذ منـــاشر لتجفيف الثياب المغسولة . ولكنها فى الحقيقة معـــاهد خاصـــة لتريض النساء فى منازلهن خصوصا اذا كانت خالية من الحـــدائق والافنية واليها يصعد رب البيت وحرمه وجواريه لاستنشاق النسيم العليل فى الاصيل والتماس الراحة من عناء النهار وتطلى السطوح أى ظاهر السقوف عادة بمونة تتألف من رماد الافران والجـــير والمصيص . أما فى منازل أصحاب اليسر والرخاء فتبلط بالبـــلاط الحجرى مقطوعاً قطعا صغيرة رفيعة جدا .

١١ ـ صحن الدار

فى كل منزل غالبا صحن داخلى تتوافر فيه مزيتان : احداهما ادخال الضوء والهواء فى حجرات الدار والثانية الاستفادة بما حوله من الامكنة فى اقتناء الحيوانات الداجنة كالدجاج والمعز الخ أو ايواء حيوانات النقل كالخيل والحمير أو حفظ الامتعة الفائضة عن الحاجة

وقد يجعل فيها الطاحون والفرن والمطبخ ومسكن الخدم وحجرة استقبال الزائرين (المنظرة) يتوسط ذلك كله بئر لاستقاء الماء اللازم للمرافق المنزلية منها .

١٢ — حجرة النساء

يختص القسم الاعلى من الدار بالنساء . وهو يحتوى بهوا كبيرا يشبه البهو الخاص بالاستقبال فى منازل الاوربيين وكذا مخادع النوم لرب المنزل ونسائه وجواريه وغرفا أخرى الخ .

١٣ — المميزات الخاصة

دور المسلمين كافة الا القليل منها مشيدة على الطراز المتقدم ومقسمة بمقتضاه فاذا وجد اختلاف يسير فى الترتيب بين دار وأخرى فانما يرجع الى التفاوت بين أربابها فى الهيئة الاجتماعية وجاهة وثروة . فبيوت الاغنياء مثلا تحتوى الحدائق غالبا وهى مسرحهن ومراحهن دون غيرهن يختلفن اليها لترويح النفس وتطييبها وتعويض عليهن لذة ما يرجى من السرور بتنزههن فى الخارج وتحتوى مساكن العظماء احيانا صحنين وحديقتين وبنايتين احداهما للرجال والاخرى للنساء .

ودور المصريين مبلطة عامة ببلاط من الحجر أما الاغنياء فيقوم المرمر فى دورهم مقام البلاط فى تلك وفيها الحمامات . وتبلط مناظرها بالقاشانى وفى وسطها حوض ينبثق منه الماء . وفى الحجرات العليا أحواض من هذا القبيل ذات نافورات وليس فى كل دار سوى مدخنة هى التى يسلك منها دخان المطبخ . أما بيوت الخلاء

عديدة اذ لكل حجرة واحد منها . وزجاج الشبابيك لا ينفتح
كما هنا بدفتين بل يرفع من أسفل الى أعلى فيتحرك فى مجرى
خاص به يمنة ويسرة ولما كانت التهوية من الامور المهمة فى البيوت
المصرية فالذى جرت عليه العادة فى مصر أن يفتح فى السقف فتحة
يقام عليها منور متجه الى الشمال (البحرى) فاذا ما أقبلت الريح
من الشمال واصطدمت بهذا الحاجز هوت الى داخل المنزل فجددت
هـــواءه .

والنمط الهندسى الغربى هو المعمول به فى انشاء جميع
المنازل تقريبا بالقطر المصرى ولا يجهل أحد ما تحلت به هذه
الهندسة البنائية من الرسوم الظريفة والزخارف الجميلة والتراكيب
المنسقة والاوان الزاهية . وهو ما يصح معه القول بأن البيوت
المصرية مدينة بجمال منظرها الى الاجزاء التفصيلية التى هى اس
ذلك النمط الهندسى وقوامه . ولقد سبق لى الكلام على رداءة
مظهرها الخارجى . وهى من حيث توزيع أقسامها الداخلية حقيقة
بمثل هذا الانتقاد اذ لا نظام بالمرة فى توزيع الغرف بل غالبا مايكون
بعض الحجرات أكثر ارتفاعا من البعض الآخر وغير قائمة على
مستو واحد وان تكن كلها حجرات طابق واحد . وهذا
الاختلال الهندسى مقصود بذاته لانه يساعد على العزلة التى
يطلبها رب البيت . وهناك مخابىء كثيرة ليس من الممكن انشاؤها
الا اذا ضحى النسق الهندسى ووحدة التطابق فى المجموع .

ومنذ بضع سنوات طرأ اختلاف عظيم على أنماط هندسة
المساكن فحل محلها النمط الاسلامبولى الذى هو عبارة عن مزيج
من النمط اليونانى الفاسد والنمط العربى لا رائد له من الذوق
السليم . ولقد أنشئت مبان من الخشب طبقا لهذا النسق الجديد
وروعى فيها استبدال القواعد البيضوية الشكل بنوافذ كبيره

مستطيلة واستعيض عن النقوش العربية الجميلة بصقل أسطح الجدران صقلا متناسقا وهو مما ينبو عنه النظر وينبذه الذوق .

١٤ ـ الحوانيت

فى الادوار الارضية من المنازل الواقعة فى الاحياء التجاريه حوانيت التجارة ومخازنها وهذه الحوانيت صغيرة جدا يختلف مسطحها من ١٣ الى ١٦ قدما عرضا فى مثلها طولا وليس لها فى مقدمها مكان تعرض فيه البضائع . وكل ما هنالك دكان من الحجر يحول بين الجمهور المقبل على الشراء والدخول فيها فيضطر الى البقاء خارجها .

١٥ ـ منازل القرى

فى مدن الوجه البحرى فقط تشاد المنازل بالحجر والآجر ، لان الامطار فيه كثيرة والمنازل تستلزم الصلابة والمتانة أكثر مما تستلزمها المنازل فى الوجه القبلى لقلة الامطار ولا يستعمل فى بلدان الصعيد عادة الا الآجر المربع المجفف فى الشمس والمبنى من الطين وحده ، وليس فيه مدن كبيرة بل قرى صغيرة فقط فيها مساكن الفقراء وهى فى أقصى ما يكون من الحقارة لانها عبارة عن أكواخ لا ترتفع فوق سطح الارض الا ببضعة أقدام وجدرانها الهشة متخذة من الطين الآجر النيىء الذى اتخذ روث الحيوانات لالصاق بعضه ببعض . والضوء والهواء ينفذان فيها بفتحات صغيرة جدا وأسقفها مغطاة بفروع الاشجار وسعف النخل . ويعيش الفلاح فى هذه الغرفة الضيقة مع ما يملكه من الحيوانات الداجنة . وفى عدد عظيم من القرى أبراج مربعة الشكل للحمام ولكن جدرانها مائلة ميلا قليلا وقائمة فوق سطوح الاكواخ .

١٦ ـ المساجد

المساجد هى معابد المسلمين وهى كثيرة العدد منتشرة فى جميع ارجاء القطر المصرى لكثرة ماشاد منها الملوك والامراء والاغنياء اظهار لورعهم وتقواهم . والقاهرة وحدها فيها أكثر من أربعمائة مسجد تحتوى مبانيها عادة بوابات ترتفع صفوفها حول صحن مربع فى وسطه حوض معد للوضوء والجانب الذى فيه المحراب والمنبر من المسجد يتجه صوب مكة المكرمة وهو افسح من الجوانب الاخرى وبه صفان أو أكثر من الاعمدة مؤازية للجدار الخارجى ويتألف منها الجزء الامامى من المسجد وفى الجدار المتقدم تجويف يسمى بالمحراب هو دليل الاتجاه نحو مكة بالنسبة للمسجد والى اليمين من المحراب المنبر الذى يصعد فيه الخطيب ليعظ المصلين وتجاه المحراب الى الخلف أدراج بسطت عليها نسخ من القرآن ودكة يقيم المؤذن منها الصلاة .

وفوق المساجد ترتفع المنارات فترتسم على صفحة السماء اللازوردية اللون كسهام محددة النصال وهذه المنارات يدعو المؤذنون من أعلاها المؤمنين ان الصلاة فى الساعات المقررة لها تكسب المدائن الاسلامية طابعا خاصا تخلو منه المدائن الاخرى . وتكتسى جدران المساجد بنقوش هى آية الظرف والدقة والاتقان . ومعلوم أن نبى المسلمين لما أراد أن يطعن الوثنية فى قلبها الطعنة القاضية عليها شدد فى تحريم تصوير الكائنات الحيوية ولو كان رسما بالقلم فكان هذا سببا فى أن لاتوجد على الاثار الاسلامية نقوش تمثل صور الانسان أو الحيوان وأن أرباب الفن من العرب فى تأليف النقوش الهندسية الجميلة ذات الاشكال المختلفة التى تحير بمختلف تراكيبها اللب وتأخذ بمجامع القلب وهى كلها لا تمثل سوى تشابك الاغصان وتضاهى الاوراق والازهار على نمط بديع يشير الى ما هنالك من الحذق والمهارة فى الصناعة .

وغالبا ما تعترى السياح الدهشة كلما زاروا هذه المساجد ورأوا ما هى عليه من اندثار تلك النفائس فيها شيئا فشيئا وتعذر عليهم التوفيق بين هذه الحالة وما يظهره المسلمون من التقوى والورع والتعلق بالدين واحترام المساجد . ولكن لنا أن نقول أن هذا الاحترام نفسه هو السبب فى اهمال شأن المساجد على الوجه الذى رسمناه لمبالغتهم فيه الى حد انهم يخشون أن مجرد الشروع فى ترميم العطب واصلاح الفاسد يعدمنهم افتئاتا وتعديا على تلك الآثار الجميلة فهم يتركونها على حالها من الاندثار الى أن تؤول الى السقوط فاذا سقطت شرعوا فى بنائها من جديد .

١٧ ـ الاسبلة والاحواض والحمامات

فى غالب الامر يلحق ببناء المساجد منشئات للجمهور كالاسبلة واحواض الماء والحمامات والمدارس والفنادق . أما الاسبلة فشائعة شيوعا عظيما فى جميع أرجاء القطر اذ يوضع فيها الماء فى أيام الافيضان النيلى ليوزع على المحتاجين اليه . وهذه الاسبلة مستديرة الشكل وتحلى بالنقوش وفى نافذاتها الشبابيك المصنوعة من البرونز والاعمدة الرخامية والزجاج الملون والكتابات المحفورة . أما الاحواض فعبارة عن حوض يملأ بالماء وتعلوه قبة أو باكية وكثيرا ما يكون بالقرب منه بوابة كبيرة تجعل لها منظرا أثريا . ويقضى طقس مصر بالاستحمام ويحتمه دين المسلمين وهذا هو السبب فى وجود عدد كبير من الحمامات العمومية .

١٨ ـ القهوات والاسواق والوكائل

من الخطأ تصور القارىء أن القهاوى فى الشرق تشبه القهاوى فى بلادنا بوجه ما من وجوه الشبه فأن القهاوى المصرية عبارة عن غرف يحيط بها دكاكين من الحجر مغطاة بالحصر يجلس عليها

المصريون للتدخين وشرب القهوة وسماع القصص ، والقهاوى من هذا النوع كثيرة جدا .

أما الاسواق فليست الا شوارع مغطاة على عطفيها حوانيت صغيرة تتزاحم أقدام الناس فيها .

وأما الوكائل فبنايات كبيرة مخصصة لحاجات التجارة وهى عبارة عن أبنية مقامة حول فناء مربع يحتوى فى وسطه حوض ماء وحوله مخازن فسيحة مسقوفة بالحجر كيلا تؤثر فيها نار الحريق . أما الادوار العليا فمقسمة الى غرف وحجرات ينزل فيها الغرباء من التجار .

١٩ ـ المدن والقرى المصرية

يؤخذ مما ذكرته عن المساكن المصرية أن المدن التى تتألف منها لابد أن تكون على شىء من الجمال ولكن الحقيقة غير ذلك . فأن الطرقات فى هذه المدن لا تحف بها منازل يرضى شكلها النظر أو يسر القلب فضلا عن أنها غير خاضعة لقانون تنظيم يجعلها فى تعاقبها على خط مستقيم . لان كل مالك متى شرع فى بناء منزل له أقامه على ما يرضى هواه ويتفق مع مصلحته ولذا كان فى الغالب لا يهمه التوفيق فى الاتجاه بين واجهة منزله ومقتضيات الطريق العامة فكثيرا ما تراه يجعل هذا المنزل مائلا على هذا الطريق لاقائما عليه وهذا فضلا عن أن الطرقات كثيرا ما تكون من الضيق بحيث تكاد مشربياتها المتقابلة تلتقى ببعضها فتمنع انطلاق الهواء فى الطريق وتحجب أشعة الشمس عنه . ثم ان الطرقات لم تكن مفروشة بالبلاط فهى اما أن تغطى بطبقة كثيفة من العثير واما بطبقة أكثف منها من الطين وفى الحالين يكون المرور منها مكروها ومتعذرا . وهناك شوارع على شىء من الاتساع ولكنها جميعا

معوجه تعترضها الازقة المسدودة او تتلاقى ببعضها عـلى وجه المصادفة ومن غير ترتيب فيتكون من مجموعها تيه يتعذر على من لم يكن قد ألف السير فيها التماس مخرج له منها .

وتنقسم المدائن الى حارات او احياء تغلق كل حارة منها فى الغالب بأبواب كبيرة تعهد حراستها كما هو الحاصل فى القاهرة الى حراس يظلون طول الليل فى موقف المراقبـة ولكل حارة من تلك الحارات اسم تعرف به كما أن لكل طريق اسما كذلك ولكن هذه الاسماء لم تكن مكتوبة على جدرانها كما ان المنازل لم تكن مرقومة بأرقام التعداد . أما الاستصباح العام فى الطريق فمجهول بالمرة وغاية ما هنا لك من الضوء فى الليل ما يعلقه الاغنياء من الفوانيس على أبواب منازلهم أثناء الليل . ومواقـع المدن والقرى اختيرت بمحض المصادفة وبدون رعاية شرط ما من الشروط التى تقتضيها قواعد الصحة التى يهملها سكان القطر وأهل القرى منهم خصوصا فيضرون بأنفسهم ضررا بليغا فأنك تراهم يتركون المنازل يعمل فيها الفناء بلا اكتراث فتتشقق جدرانها وتنثل أحجارهـا فلا تلبث أن تصبح ملتقى لصنوف الحشرات والافاعى وهذا فضلا عن اغفالهم ازالة الانقاض التى تتراكم على الارض وربما زادوا الطين بلـة بالقائهم عليها من غير كراهة ولا تقزز قمامات المنازل وقاذوراتهـا وما تعافه النفس من فضلات طعامها فيكون ذلك شر بؤرة تنبعث منها عناصر الامراض الوبيئة .

٣

التقسيمات الأرضية

التقسيمات فى الازمان القديمة — التقسيمات فى عهد المماليك — التقسيمات الحالية — المديركليات الاولىوالثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة .

٢٠ — التقسيمات فى الازمان القديمة

كانت مصر على عهد الفراعنة مقسمة الى ستة وثلاثين نوما أى قسما أو مديرية وكل نوم أو مديرية الى مراكز صغيرة . وكان أربعة عشر من تلك الاقسام بالوجه البحرى واثنان وعشرون بالوجه القبلى . وحافظ البطالسة على هذا التقسيم فلم يدخلوا عليه تغيرا ما ، فلما صارت مصر فى أيام اغسطوس قيصر اقليمى رومانيا رأى أنها من الاهمية بحيث لا يليق ان تعهد ادارتها الى حاكم واحد فجعلها اثنى عشر قسما فقط .

٢١ — التقسيمات فى عهد المماليك

أما فى عهد المماليك فكانت مصر مقسمة الى خمسة عشر اقليما تسعة منها فى الوجه البحرى وهى البحيرة ورشيد والغربية ومنوف ودمياط والمنصورة والشرقية وقليوب والجيزة ، وثلاثة

فى مصر الوسطى وهى اطفيح والفيوم وبنى سويف ، وثلاثة فى مصر العليا أى الصعيد وهى أسيوط وجرجا وطيبة ، وحافظ بونابارته على هذا التقسيم فلم يدخل عليه تعديلا ما .

٣٢ ــ التقسيمات الحالية

اما محمد على فقد غير هذه التقسيمات برمتها اذ قسم القطر اقساما ادارية رأى أنها أصلح لحصر السلطة وأدعى الى تركيزها وتوحيد أعمالها فجعلها سبع حكومات أصلية يقوم عــلى تدبير شؤونها المديرون وقســم هذه الحكومـــات أو المدير لكيات الى مقاطعات والمقاطعات الى مراكــز يحــوى كل مركز منها عددا من القرى .

وقسم الوجه البحرى الى اربع مدير لكيات ومصر الوسطى والوجه القبلى الى ثلاث وجعل عدد المقاطعات فيها كلها اربعـــا وســـــتين مقاطعة وظهر من الاحصءا أن عدد القرى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية .

وسايين هنا مراكز المدير لكيات والمقاطعات التى تتالف منها والمدن الشهيرة والقرى المهمة التى تحتويها .

٢٣ ــ المديرلكية الاولى

تتالف هــذه المدير لكية من اقاليـــم البحيرة وهى مقاطعات الرحمانية والنجيلة وشبرى ريس ودمنهور . وفى الطرف الشمالى الغربى من هذا الاقليم ثغر الاسكندرية . ومن أهم قراه ابو قير وديروط والطرانة ثم اقليم الجيـــزة ويتألف من مقاطعتى الجيزة

والبدرشين وفيهـا من المدن ميت رهينة (منفيس) ودهشور وسقارة .

أما القاهرة فلم تكن داخلة فى احدى المديرلكيات ولكنها توجد بحكم وضعها فى إقليم ، الجيزة ثم اقليم قليوب ويتألف من مقاطعات قليوب والمرج وبنها العسل وطحا . ومن قراها الشهيرة شبرى والخانقاه وأبو زعبل والمطرية .

٢٤ ــ المديرلكية الثانية

تتألف من اقليم منوف وهى مقاطعات اشمونجريس والباجور وشبين الكوم ومليج وابيار ومن قراها الشهيرة منوف ثم الغربية ويتألف من مقاطعات فوه وزفتى وطنطا والجعفرية والشباسات والمحلة الكبرى ونبروه وشربين ودمياط . ومن مدنها رشيد وهى لا تدخل فى ادارة مديرو المحلة الكبرى .

٢٥ ــ المديرلكية الثالثة

تتألف من اقليم المنصورةوفيه مقاطعات ميت غمر والسنبلاوين والمنصورة والوادىومحلة دمنةوالمنزلة ومن قراه الشهيرةفارسكور والعريش والتينة بالقرب من اطلال الفرمة.

٢٦ ــ المديرلكية الرابعة

تتألف من اقليم الشرقية وهى مقاطعات شيبة النكارية والعزيزية وبلبيس وههيا وأبو كبير وكفور نجم .

اما اطفيح فتتألف من مقاطعة واحدة من اشهر قراها التبين .

٢٧ ــ مديرلكية مصر الوسطى

هذه المديرلكية تشمل الفيوم وبنى سويف وتتــألف من ست مقاطعات وهى فمن العروس والفيوم وبنى ستويف والفشتــن وابو جرج . ومن قراها الشهيرة الزاوية وأبو صير الملق ومدينة الفيوم واللاهون ومعصرة دروه .

٢٨ ــ الوجه القبلى والصعيد

ينقسم الوجه القبلى الى مديرليكيتين تشمل الاولى بنى مزار والمنيا وزاوية موسى وديروط وملوى والقوصية ومنفلوط والــدوير والشروق وأسيوط وسوهاج وطهطا واخميم وبرديس وجــــرجا وفرشـــــوط .

وتشمل الثانية مقاطعات قنا وقوص واســنا وادفو . ومن أشهر مدنها دندره ومدينة آبو .

٤

أشــــهر مدائن القطــــر المصرى حالا

الاسكندرية ــ أبو قير ــ رشيد ــ دمياط ــ دمنهــــور ــ الرحمانية ــ فوه ــ المنصورة ــ المحلة الكبرى ــ طنطا ــ المدن الاخرى فى الوجه البحرى ــ القاهرة ــ بنى سويف ــ الفيوم ــ غيديمين ــ المنيا ــ الاشمونين ــ منفلوط ــ أسيوط ــ أخميم ــ جرجا ــ قنا ــ قوص ــ اسنا ــ أسوان ــ السويس ــ الصقير

سأتوخى فى كلامى على اهم مدائن مصر الحالية المرور بهـــا مرا سريعا وسأبتدىء بالواقع منها فى الوجه البحرى ثم أتبـــع فى ذكر البقية ترتيبها بحسب مجرى النيل صعودا وهـــذا الترتيب ينطبق على الطبيعة اذ هو الذى يراها بمقتضاه السياح والرحالون الذين يزورون القطر المصرى .

٢٩ ـ الاسـكندرية

قال نابليون : « اشتهر الاسكندر بتأسيسه مدينة الاسكندرية وانصراف نيته الى اتخاذها مركز دولته وعاصمة ملكه أكثـر من اشتهاره بفتوحاته العظيمة وانتصاراته الباهرة .

فقد كان مقررا أن تصير تلك المدينة عاصمة العالم بأسره ، وهى حرية بذلك لوجودها بين آسيا وأفريقية واتصالها بالبلاد الهنـدية والاصقاع الاوربية . وميناؤها هو المرسى الوحيد للسفن على مدى خمسمائة فرسخ من السواحل الممتدة من تونس أو قرطاجنة القديمة لنهر النيل وميناؤها يسع أساطيل العالم بأجمعه وفى الميناء القديم تكون عرضة لعبث الرياح وهجمات الاعداء » .

وموقع الاسكندرية فى درجة ٥ ١٣ ٥٣١ من العرض الشمالى ودرجة ٣٠ ٣٥ ٥٢٧ من الطول الشرقى وقائمة بالقرب من بحيرة مريوط على البرزخ الذى بين القارة وشبه الجزيرة التى يتكون منها الميناء القديم والميناء الجديد . أما الميناء الجديد وهو الواقـع الى الشرق فمتسع المدخل ولا أمن فيه على السفن اذا لجأت اليـه أثناء اضطراب البحر . وفى النهاية القصوى من لسـان الارض الواقى له قلعة المنارة ، سميت بذلك لانها مشيدة على المكان الذى كانت به فى الازمان القديمة منارة البطالسة . أما الميناء القديم فالى الغرب من الاول وهو حوض عميق جدا اذا لجأت اليـه أمنت على نفسها عبث الامواج بها ، والبوغاز المؤدى اليها يتعذر المرور منه على السفن الكبيرة التى جزؤها الغـائص فى المـاء

عميق . وكان الدخول منها الى الميناء ممنوعا ومحـرما عـلى المسيحيين قبل أن يتسلم محمد على مقاليد الحكم اذ كان لا يجوز لهم النزول الى البر الا فى الميناء الشرقى الشديد الخطر عـلى السفن كما قلنا .

وموقع الاسكندرية ، وقد أحاط بها البحر من جهـة ورمل الصحراء من جهة أخرى ، يجعلها كالجـزيرة . وليس فى المدينة الحالية شىء من الاسكندرية القديمة غير الاسم والاطلال الدارسـة وقد لاحظ الكثيرون هذا الامر . والذى خططها وأقام مبانيهـا بمقتضى الاوضاع والاوصاف التى عينها الاسكندر الاكبر هو بنفسه المهندس (دينوقراطس) ويؤخذ من رواية (بليناس) أن طـول محيطها كان خمسة فراسخ تقريبا وان عدد سكانها كان ٣٠٠ . . . من الاحرار ومثلهم من الارقاء . وكان يشـقها من الشمال الى الجنوب شارع طوله ٢٠٠٠ . . قدم وعرضه ١٠٠ . قدم يقطعه فى زوايا قائمة شارع آخر مثله . وكانت أحياؤها محلاة بالمبانى المنجدة من القصور الباذخة والهياكل الفخمة والمدارس الجمنازية والمسارح التمثيلية الخ .

ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب أنه لما استولى عمرو بن العاص على الاسكندرية كانت مؤلفة من ثلاث مدائن تسمى احداها « منه » والثانية « نكيته » والثالثة « الاسكندرية » ووصفها ذلك الفاتح العظيم فى كتاب بعث به الى أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب فقال انه وجد بها ٤٠٠٠ قصر و ٤٠٠٠ حمام و ٤٠٠٠ ملهى وبناية عامة و ١٢٠٠٠ مخزن أو مستودع للتجارة .

وقبيل سنة ١٢١٢ من الميلاد المسيحى احاطها أحد السلاطين ممن حكموا بعد السلطان صلاح الدين بسياج طوله الدائرى فرسخان يتخلله مائة برج ولا يزال هذا السور قائما الى الآن ورممه محمد عـلى .

وقد سقطت مدينة الاسكندرية من علوة مجدها منذ فتحهـــا المسلمون وهبطت الى الدرك الاسفل من الحضيض فى عهد المماليك فليس بغريب اذن أن تكون فى أيام وصول الحملة الفرنســـية الى القطر المصرى واحتلالها اياها قرية يأوى اليها القرصان ، وأن لا يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة وأن تكون حصونها وقلاعهـــا آيلة الى السقوط وأن ينتابها العربان فى كل وقت للنهب والسلب حتى أن الانسان كان لايستطيع الخروج منها لزيارة عمود بومبيوس (السوارى) الواقع على مسيرة عشر دقائق من المدينة من غير حرس يحرسونه .

ولم يطل احتلال الفرنسيين لمصر ليتمكنوا من احلال الاسكندرية فى المرتبة الاولى التى تجعلها حقيقة بها موقعهـــا الطبيعى عـــلى ساحل البحر الابيض المتوسط . وكل ما استطاعوا أن يقوموا به فيها من الاعمال أن شادوا حولها الاستحكامات اللازمة لوقايتهـــا من غارة العربان وترميم الاستحكامات القديمة التى عملت فيها يد البلى والاندثار .

وما أن استتب لمحمد على الحكم على الديار المصرية حتى أدرك بثاقب نظره وصائب فكره مالها من الاهمية العظمى من الوحـــوش الحربية والبحرية والتجارية ، وهى الاهمية المستمدة من طبيعـــة موقعها كما ذكرناه . فانها بلا مراء المفتاح الحربى للقطر المصرى وأول نقطة يتصدى لها العدو المغير بهجماته . فكان فى الدرجـــــة القصوى من الاهمية السهر على توطيد تلك الحصون والاستحكامات وتعهدها بما يجعلها على الدوام مكينة البنيان وثيقـــــة الاركان . ولا شك فى أن احتلال الانكليز اياها سنـــة ١٨٠٧ ألقى فى نفس محمد على الاعتقاد بأن أقل اهمال فى هذا المصدر ربما كان فيـــه القضاء على نفوذه ومكانته أبد الابدين .

ومرفئا الاسكندرية هما الوحيدان اللذان على السواحل المصرية واذا كانت الاساطيل ضرورية لصيانة استقلال القطر المصرى الذى لا تستطيع الدول الاوربية تهديده الا عن طريق البحر فالاسكندرية

المرفأ الوحيد الذى تستطيع هذه الاساطيل اتخاذه مكمنا يتعذر الهجوم عليها فيه . فقد كان من الواجب اغتنام هذه المزية الطبيعية وهو ما لم يغفل عنه محمد على لانه جعل الاسكندرية ثغرا حربيا وانشأ بها دارا للصناعة (ترسانة) فارتفع لها شأن بين مرافىء البحر الابيض المتوسط .

أما الاهمية التجارية لكل نقطة من نقط سواحل مصر على البحر الابيض المتوسط فتابعة لسهولة المواصلات بينها والقاهرة التى هى المركز التجارى والصناعى والسياسى لذلك القطر . وكانت الاسكندرية قديما تتصل بالجهات الداخلية من القطر بفرع النيل الذى كان واصلا اليها . فلما انسدت هذه الترعة بانهيال الاتربة فيها كان أول ما عنى الفاتحون العرب به ايصالهم اياها بالقاهرة بترعة أجاد المؤرخون الشرقيون وصفها . ولكن هذه الترعة لم تلبث فى أيام أن اندثرت كسابقتها وأصبحت لا فرق بينها والخندق البسيط يجف الماء منها أثناء الشطر الاكبر من السنة ، فنشأ عن ذلك أن فقدت الاسكندرية مكانتها التجارية التى آلت من بعدها الى ثغر رشيد .

غير أن محمد على أبى أن يستمر هذا الغبن فأعاد الى الاسكندرية أهميتها الاولى بانشائه ترعة تسير فيها السفن سماها بالمحمودية نسبة الى السلطان محمود اجلالا وتخليدا لاسمه ومنذ هذا الحين انحصرت دائرة التجارة فى الاسكندرية وجعل ناظر التجارة المصرية مقره فيها لهذا السبب ولكى يباشر أيضا مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير الى التجار الاوربيين .

ولما نهضت الاسكندرية من عثرتها وعادت الى نضرة شبابها الاول من الوجوه الثلاثة المتقدمة ازداد عدد سكانها بسرعة غريبة فوصل الى ٦٠٠٠٠ نسمة الثلث منهم يعملون فى الاساطيل

والمصانع نوتية أو صناعا . والثلثان الباقيان نصفهما أى عشرون الفا من الاهالى الوطنيين والنصف الثانى منه ستة آلاف من الاتراك وعشرة آلاف من اليهود والقبط وخمسة آلاف من الاوربيين . ولا يدخل فى هذا التعداد السكان الرحل أى الذين يأتون الى الاسكندرية لقضاء الاشغال أو لمجرد السياحة ثم يعودون الى مواطنهم .

ولقد تغير منظر المدينة تغيرا محسوسا خلال السنوات الاخيرة فلقد كانت المقابر الفسيحة بداخل المدينة فزحزحت الى خارجها ، وبعد أن كانت مستنقعات المياه الراكدة تتخللها جففت وردمت . أما الطرقات فمن المحقق أنها لم تفرش بالبلاط ولكن العناية بنظافتها متواطئة وأنشئت على أعطافها فى كثير من جهاتها المبانى المختلفة ودور الصناعة (الترسانات) والقصور والثكنات العسكرية والفاوريقات والمستشفيات الخ وهدم قسم عظيم من الاسوار التى كانت محيطة بها من ناحية البحر لتحل المبانى الجديدة محلها وتنمو المدينة النمو الطبيعى الذى كانت بحاجة اليه .

ودار الصنعة البحرية (الترسانة) مشيدة فى شبه الجزيرة المعروفة برأس التين كما شيد فيها قصر الوالي وجملة من المبانى المخصصة لمصالح الحكومة .

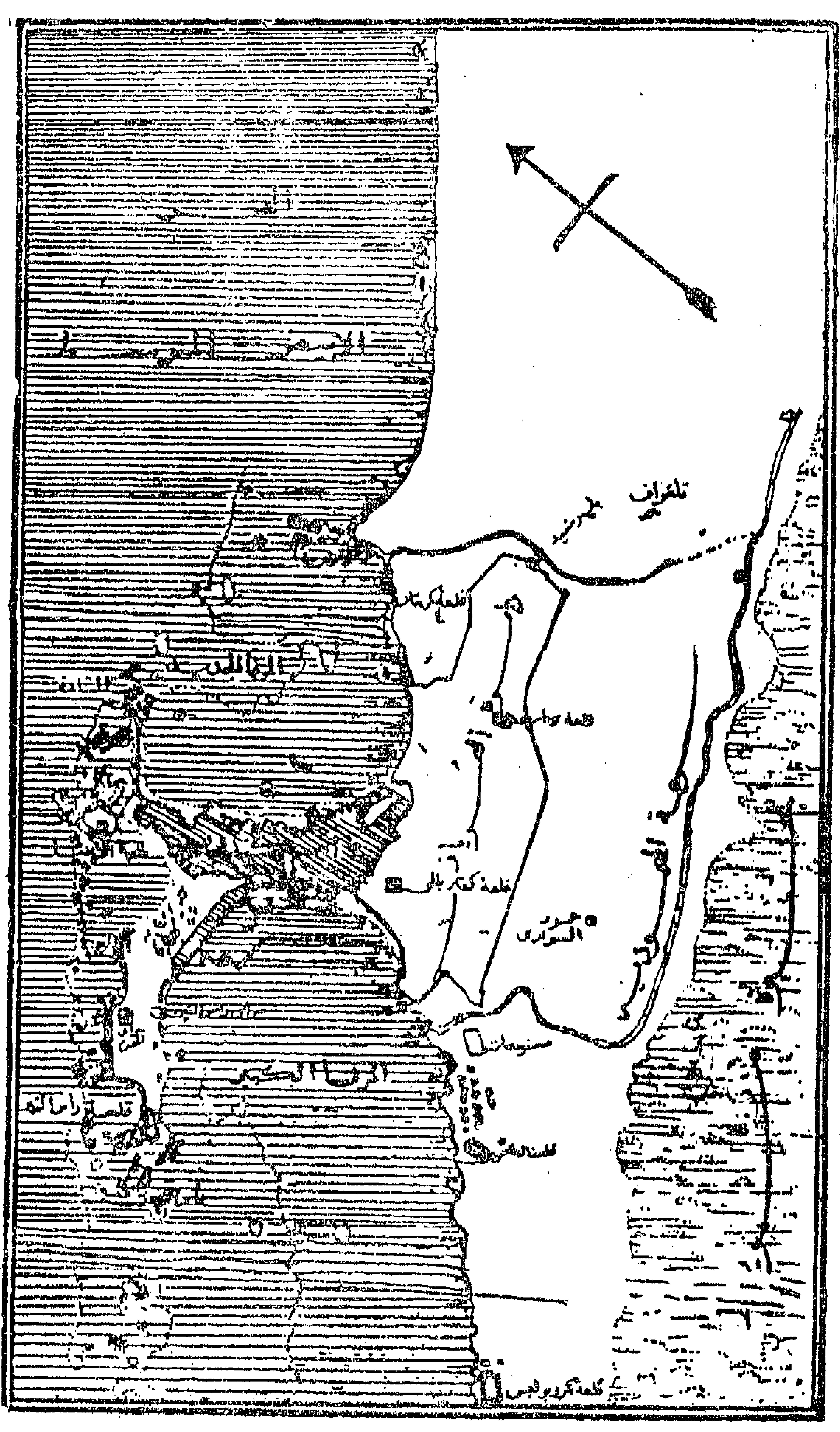
أما البرزخ الواصل بين رأس التين والارض القارة ففيه الحى الذى يسكنه الاتراك وهو مشيد على النمط المألوف فى المدن الاسلامية .

ويلى ذلك الحى حى الاوربيين وكان بالاسكندرية فى الزمن السابق حى أفرنجي يسكنه الافرنج أى الاوربيون فصار أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الآهلة بالوطنيين منذ القيت مقاليد الحكومة الى عهدة محمد على واتخذ القناصل الجنراليون الاسكندرية مقرا لهم .

وفى سنة ١٨٢٤ نزلت الاسكندرية وافدا عليها من الخـــارج فكانت لا تقع عين الناظر فى الحى الافرنجى الا على بضع وكائل . أما الآن فقد انقلب هذا الحى رأسا على عقب وتغيرت معالمه فامتد من وسط الميناء الجديدة الى مسلة كليوباتره . وبجوار هذا الاثر الآن ميدان جميل مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم وعرضـــه ١٥٠ قدما . وقد شيدت المبانى الحافة به من كل جهة على الطـــراز الاوربى وبحسب تصميمات هندسية متقنة . ويملك سمو ابراهيم باشا بعض هذه المبانى الشــــاهقة ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر . ودار القنصلية الفرنسية منه ماتمتاز عـــلى دور القنصليات الاخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها .

وداخل السياج المتكون من حصون المدينة أكمتان ارتفاع كل منهما مائتا قدم تقريبا وعلى قمة كل منهما طابية انشأها الفرنسيون ولا تزال احدى الطابيتين تحمل اسم البطل (كفاريللى دوفالجا) القائد فى فرقة الهندسة والمتوفى فى حصار عكا وهذه الاكمة وهى اقرب الاكمتين من المدينة عبارة عن مجموعة آكام من الانقـــــاض يرجع تاريخ وجودها على الارجح الى زمن حكم العــــرب . أما الاكمة الاخرى المعروفة بكوم الدكة فصخرة حجرية تشرف عـــلى المكان الذى كان يشغله فى الزمن القديم أحد ملاهى التمثيل وكانت المساكن التى حولها عششا وأكواخا حقيرة لبعض العربان . أما الآن فبالنظر لـــا تبينه الاوربيون من جودة موقعهـــا وحســـــن مناخها وموافقتهما لصحة المقيمين بها شيدت المبانى عندها وأقيمت القصور فى وسط الحدائق الغناء .

والخرائب والاطلال منتشرة بضواحى الاسكندرية الى مسافة كيلو مترين منها وهى تدل صراحة على صدق ما رواه المؤرخـــون عن عجائب المدينة القديمة وتحفها وصحة ما قالوه بشأنها وانه لم يكن مبالغا فيه . ولا ريب فى أن مواد البناء التى شيدت بواسطتها



خريطة الاسكندرية فى عهد محمد على باشا

منازل الحى العربى أخذت من هذه الاطلال الدائرة وكان أخــذها من الطبقة الظاهرة على وجه الارض دون الطبقات التى تحتهــا وهذا هو السبب فى أن المنقبين عن الاطلال القديمة يعثرون كلمــا حفروا على مقابر وافرة منها وكثيرا ما يهبطون أثناء الحفر الى عمق ســتين قدما .

اما المبانى العامة التى بثغر الاسكندرية فهى دار الصــنعة (الترسانة) وقصور سمو الوالى فى رأس التين وهى تتــألف من الحرم والديوان والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافرخانة التى أعدها الوالى لضيافة واكرام كبار الزائرين والمسافرين والسياح. وفى الاسكندرية مصلحة لمراقبة الشئون الصحية ومستشــــفيات احدها للبحرية وهو المعروف بمستشفى المحمودية ويسع من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وهناك مستشفى آخر للجنود البرية يعــرف بمستشفى رأس التين ويسع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ مريض وفى المدينة كلها نحو ثلاثين مسجدا .

٣٠ — أبو قــير

اذا اشتط السائر الساحل شرقى الاسكندرية كان أول مايلتقى به فى طريقه قبل وصوله الى بحيرة أدكو ساحل اشتهر بالواقعة البحرية التى ذهبت بثمرات الحملة الفرنسية وبفوز بونابرت الى الاتراك فى السنة التالية التى أصيب فيها بذلك الفشل أى عــلى أثر عودته من بلاد الشام . فذلك المكان ذو الشهرة المضاعفة الذى يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد هو « أبو قير » .

أما القرية المسماة بهذا الاسم فواقعة فى المكان الذى كانت فيه قديما بلدة (بوزيرس) المشهورة بهيكلها المشيد للالهة ايزيس وبالاعياد السنوية التى كان المصريون يقيمونها به .

وأهمية موقع أبى قير من الوجهة العسكرية لا تذكر ولولا ان سواحلها معرضة لهياج الامواج لكانت أصلح موقع تنزل منه حملة أجنبية للاغارة على الديار المصرية . ولقد أدرك الوالى بثـاقب فكره تلك الاهمية فأنشأ به حصوناً واستحكامات جعلته أمنـع من عقاب الجو كما أيده الكثيرون من العارفين بحقيقة الحال .

٣١ ــ رشـــيد

مدينة رشيد واقعة فيما يلى بحيرة المعدية على الضفةاليسرى من الفرع الغربى للنيل . وموقعها على مسافة فرسخ ونصف من البحر المالح فى ملتقى٢٥ ٣١° من العرض الشمالى بـ ٥ ٨ ٢٨° من الطول الشرقى. والسفر اليها برا باشتطاط الساحل وبحـرا باجتياز ممر شديد الخطر عند مصب النيل . وهذا الممر أو البوغاز يفتحه التيار فى الكثبان الرملية المتكونة من رواسب النهر . وهو شديد الاختلاف ومن هناك جاءت الصعوبة التى تعترض السـفن فى اجتيازها اياه .

وبعد اجتياز البوغاز يرتسم فى باصرة الانسان منظـر يفتن العقل الا وهو منظر سهول الدلتا وقد فرشت ببساط طبيعى من سندس أخضر ونثرت عليه الحاصلات الذهبية اللون ورسمت فيه صور غابات النخل والقرى والمدائن تعلوها منارات المساجد ذاهبة الى السماء كأنها سهام حادة النصال وتلك السهول تمتـد الى أقصى مدى النظر فتنتهى الى حيث ينتهى الافق وتعجز البـاصرة عن نظر ما والاه .

ويقول العرب ان مدينة رشيد أطلق عليها هذا الاسم نسـبة الى هارون الرشيد الخليفة العباسى . وقد حازت اهمية تجارية كبرى عندما سقطت الاسكندرية وتدهورت الى الحضيض ولـكن

التجار لم يلبثوا أن هجروها منذ أنشئت الترعـــة المحمـــــودية وعادوا اليها بانشائها المزايا التى فقدتها زمنا ما ، وقد نقص عدد سكان رشيد للسبب المتقدم نقصا محسوسا فهو لا يتجـــاوز الآن ١٥٠٠٠ نسمة . وهى مشهورة بمعامل الارز فيها وبحدائقها الغناء التى يبالغون فى وصف جمالها وهى على نسق الحدائق الشرقيـــة التى وصفتها فيما تقدم بما يزجى الى ذهن القارى فكرة صحيحة عنهـــا .

ويبلغ ذرع مدينة رشيد نحو الفرسخ طولا فى ربعه عرضـــا . ومما يلفت النظر فيها مسجد آية فى حسن البناء ومعمل لنســـج القطن ومعامل لضرب الارز منها واحد يدار بالبخار وثكنة فسيحة الجنود . وفى جنوب رشيد زاوية شهيرة بنيت على ضريح شـــيخ مشهور بالتقوى والورع يعرف عند الاهلين هناك باسم ســيدى مندور والذى يصعد فى منارة مسجد هذا الشيخ يرى منظرا عجبا يتناول ما ينتهى البصر اليه برا وبحرا .

٣٢ — دميـــاط

ثغر دمياط على الضفة الشرقية من الفرع الشرقى النيل الذى كان معروفا أيام الفراعنة بالفرع (الفتنى) وهو بعيد عن البحر الملح بنحو فرسخين وعن بحيرة المنزلة بنحو نصف فرسخ فى ملتقى خط ١٥ ٢٩ ٥٢٩ من الطول الشرقى بالخط ٤٣ ٢٥ ٥٣١ من العرض الشمالى . وليست الآن فى نفس الموقع الذى كانت تشـــغله أيام الحروب الصليبية . والمدينة التى هاجمها الصليبيون مرارا حتى وقعت فى قبضتهم سنة ١٢١٨ من الميلاد هى دمياط القــــــديمة لا الحديثة ثم استولى عليها القديس لويس سنة ١٢٤٩ ولما ردها هذا الملك الى المسلمين فى مقابل اطلاق سراحه هدمها هـــؤلاء وأنشأوا المدينة الحالية على مسافة فرسخين من الاولى .

وضواحى دمياط مشهورة بمزارع الارز . أما هى فانها المستودع الكبير لاصناف ارز القطر المصرى ولها بالشام صلات تجارية وثيقة وكانت لمعامل النسيج بها فى الزمن السابق شهرة ذائعة وصيت بعيد . وقد ابلغ بعضهم عدد سكانها الى ٦٠ أو ٨٠ الف نسمة . وهذان الرقمان مبالغ فيهما لان هذا العدد لا يتجاوز اليوم ٢٥ الى ٣٠ الفا فقط .

وأشهر مبانى دمياط وأجملها المساجد وما شاده الوالى فيها من معامل الارز ومستودعاته وقد انشأ سموه بها ثكنات للجند ومدرسة المشاة (البيادة) .

٣٣ ــ دمنهور

دمنهور أول مدينة كبيرة يمر المسافر بها وهو متجه نحو الغرب وهى على مقربة من ترعة المحمودية ويتراوح عدد سكانها بين ٨ و ١٠ آلاف نسمة .

٣٤ ــ الرحمانية

مدينة صغيرة على النيل وعلى مقربة منها أطلال مدينة (صا) أو (صائيس) القديمة وبالقرب منها أيضا كانت مدينة (نوقراطيس) وهى الوحيدة التى فتح قدماء المصريين أبوابها من مدن القطر المصرى كله للتجارة مع الاجانب .

٣٥ ــ فوه

واقعة على النيل بين الرحمانية ورشيد تجاه فم الترعة المحمودية وكانت فى القرن السادس عشر على مكان من الاهمية ولكن قلت

اهميتها وتلاشى وجودها التجارى منذ انسدت ترعة الاسكندرية التى كانت واصلة بينها وهذا الثغر وكانت من بواعث تقدمها بما كان يرد اليها بواسطتها من البضائع والارزاق وقد علا فى هذه الايام نجمها بأنشاء سمو الوالى فيها فاوريقة لصنع الطرابيش على مثال المصنوع منها فى تونس ومعملا لغزل القطن وطاحونا لضرب الارز.

٣٦ — المنصورة

واقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط وتبعد عن هذا الثغر بنحو اثنى عشر فرسخا وقد اشتهرت بانكسار الجيش الفرنسى الصليبى الذى كان يقوده ملك فرنسا لويس التاسع عشر المعروف بالقديس لويس ولا يزال يوجد بها فى ميدان صغير مقابل للنيل المكان الذى سجن فيه هذا الملك بعد أسره . ومما يرى فى المنصورة غير ذلك اطلال قبة يقال انها التى أمضى القديس لويس تحتها معاهدة الصلح القاضية برد ثغر دمياط والجلاء عنه . وفيما بين المنصورة ودمياط بلدة فارسكور التى انكسرفيها جيش القديس لويس لاول مرة فكان هذا الانكسار سبب خذلاته وحبوط آماله .

٣٧ — المحلة الكبرى

يؤخذ من أقوال بعض الجغرافيين أن المحلة الكبرى الواقعة الان بداخل الدلتا على مقربة من فرع دمياط تشتغل موقع مدينة (سينوبوليس) أى (مدينة الكلاب) وهى على شىء من السعة وانفساح الجوانب . ومع انها الان فى غير ما كانت عليه سابقا من ارتفاع الشأن وجلال القدر فلا يزال عدد سكانها متراوحا بين ١٦ر١٨ الفا من النسمات ولمعامل نسيج قماش التيل فيها شهرة

فائقة وقد أنشأ سمو الوالى بها فاوريقة جليلة لغزل القطن ونسج الاقمشة

٣٨ ــ طنطا

يلقى الصاعد من بحرى القطر المصرى الى قبليه عن يمينه بالنسبة للمحلة الكبرى مدينة طنطا . وهى مدينة صغيرة اشتهرت بتقاطر الجم الغفير من الناس اليها لحضور المولد الاحمدى . والسيد أحمد البدوى صاحب هذا المولد مدفون فى مسجد مشهور به وهو من اشهر مساجد القطر المصرى واجملها . ومن الكرامات المنسوبة اليه أن التوسل به يزيل العقم ويشفى الادواء المستعصية الخ . وهذا الاعتقاد جعل المصريين يتواردون اليه من جميع أنحاء القطر المصرى وهذا فضلا عن أن الحجاج الذين يقصدون الى الحجاز يقفون بطنطا فى طريقهم لزيارة ضريحه .

والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الذى يقام فى كل عام اجلالا له وهو أهم الموالد الثلاثة التى تقام عادة فى تلك المدينة والاثنان الآخران هما مولد سيدى عبد العال ومولد الرجبية . وفى المولد الكبير تزدحم مدينة طنطا بالزائرين اذ يقصد اليها التجار من بلاد تركيا وفارس والهند وبلاد كثيرة من أفريقية يحملون اليها معهم الاقمشة المطبوعة والمناديل والاقمشة الحريرية ولعب الاطفال والاوانى الصلصالية والخزفية وريش النعام والارقاء الخ للاتجار بذلك وغيره . وهم يعرضون هذه البضائع على الانظار فى الوكائل وتحت الظلات التى كثيرا ما تشغل متسعا من الارض طوله نحو الاربعة فراسخ على صفين متوازيين .

اما الذين يحضرون الى المولد بقصد الزيارة لا الاتجار فأنهم يضربون الصواين والخيام بقرب المدينة فيجىء الحواة وبنات الهوى

والراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقى ليطلعوا تلك الجماهير على فنونهم وصناعاتهم . وقد اعتادت الحكومة أن ترسل الى طنطا فى أيام المولد اربعة آلاف جندى لحفظ الامن والنظام ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم بما هو معروف عنهم من الحيلة والتمويه والدهاء .

وبانتهاء المولد الاحمدى تعود مدينة طنطا الى سابق عهدها من السكون وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس وتصبح كأنها قفر بلقع ليس فيه ديار ولا نافخ نار .

٣٩ ــ مدائن الوجه البحرى الاخرى

مدائن الوجه البحرى الاخرى الجديرة بالذكر هى :

منوف ــ قرية عظيمة بالقرب من رأس زاوية الدلتا وبها مسجد فيه أعمدة جميلة .

والى شرق فرع دمياط بالطريق الموصل الى الشام القرى والبلدان الاتية :

بلبيس ــ حصنها نابليون بونابرت ــ وبالقرب منها كانت توجد على عهد البطالسة مدينة (أونيون) التى انشأ بها (أونياس) ابن أحد كبار الاحبار اليهود هيكلا عبريا على طراز هياكل أورشليم وفيه كانت تقام شعائر الديانة اليهودية .

الصالحية ــ بلدة واقعة فى وسط مديرية الشرقية

أبو زعبل والخانقاه ــ اكتسبت هتان القريتان أهمية وشهرة فى العهد الاخير وهما واقعتان فى الطريق من الصالحية الى القاهرة على مسافة اربعة فراسخ من هذه ومثلها من النيل اما القريتان

فتبعدان احداهما عن الاخرى بنحو نصف فرسخ وفى كل منهما نحو ١٥٠٠ نسمة . وفى المسافة الفاصلة بينهما سهل عظيم غير مزروع يواجه صحراء برزخ السويس حدثت فيه الواقعة بين جيش الصدر الاعظم المؤلف من ٨٠٠٠٠ مقاتل وجيش الفرنسيين المؤلف من ٩٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال (كليبر) ودارت الدائرة فيها على الجيش الاول اذ دحره الجيش الثانى ومزق شمله . وفيه ايضا اقيم ميدان التعليم للجيوش المصرية النظامية وانشئت المدارس الاولى لاركان حرب الطوبجية وكذا مدرسة الطب المشهورة باسم مدرسة أبى زعبل .

المطرية — بلدة من ضواحى القاهرة قائمة على اطلال عين شمس احدى مدن مصر القديمة الذائعة الصيت وتحوى آثارا وأطلالا ذات علاقة بالديانة المسيحية فى ابان أمرها كالبئر التى استقى منها الماء يوسف النجار ومريم والولد يسوع فى فرارهم الى مصر ، وشجرة الجميز التى آووا الى ظلها . وهذه الآثار يجلها المسلمون والمسيحون على السواء . والمطرية شهيرة بالمعركة التى وقعت بجوارها بين الفرنسيين والاتراك وكان الظفر المبين فيها للاولين على الاخرين .

٤٠ — القاهرة

تقع القاهرة فى ملتقى الخط ٢١ ٢ ٣٠° من العرض الشمالى بالخط ٣٠ ٥٨ ٢٨° من الطول الشرقى . وهى قائمة على سهل رملى وتبعد عن النيل بنحو ٤٠٠ تؤاز وعن رأس الدلتا بنحو خمسة فراسخ ونصف وعلى مقربة من السفوح الاخيرة لجبل المقطم . والقاهرة الاصلية وتسمى أيضا بالقاهرة العظمى تنحصر بين بولاق مرفأها فى الشمال ومصر العتيقة مرفأها فى الجنوب .

وتشغل مصر القديمة المكان الذى كانت فيه بابل مصر قديما . وكان عمرو بن العاص محاصرا لها حينما عششت حمامة على فسطاطه فلما بلغه هذا الخبر سر به واستبشر فلم يشأ أن يزعجها بتقويض الفسطاط يوم عن له الرحيل الى الاسكندرية لفتحها ولما تم له فتحها وعاد اختط له عاصمة حول المكان الذى ترك فيه فسطاطه وسماها « فسطاط مصر » .

ولم يكن من حظ المدينة الجديدة أن تتقدم ويتسع نطاقها فان الصليبيين زحفوا عليها فى سنة ١١٦٧ بقيادة (آمورى) ملك اورشليم . فلم يكن من حاكمها حينما رآهم مقبلين عليها الا أن أضرم فيها النار التى استمر ضرامها فيها خمسين يوما واضطر سكانها أن يلتجئوا الى الريف المجاور لها وأن يجددوا مساكنهم حول القاهرة التى اختطها فى سنة ٩٥٨ للميلاد المسيحى جوهر القائد مولى المعز لدين الله اول الخلفاء الفاطميين فارتفع شأنها بعض الشيء فحلت محل الفسطاط كعاصمة للديار المصرية واتسع نطاقها وامتدت حصونها وزهت مبانيها بالزخارف الجميلة فى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى .

ذلك أصل مدينة القاهرة التى يسميها العرب « مصر » وهو الاسم الذى اطلق منذ ذلك الحين على عاصمة الديار المصرية .

والقاهرة أكثر امتدادا فى الطول منها فى العرض . وتعتبر المدينة الاولى بين مدن الممالك العثمانية المحروسة بعد الاستانة اذ انها تشغل من الارض ما مسطحه ٩٠٠ هكتار ويبلغ محيطها ٢٥٠٠٠ متر وتكتنفها آكام ترابية تكونت بتراكم الانقاض المتخلفة

عن المبانى المصرية التى كثيرا ما تشاد بالمواد الطينيةوالترابية(١).

وكان يحيط بالمدينة سور عظيم شاده السلطان صلاح الدين الايوبى وجعل الابراج تتخلله على مسافات متقاربة . ولم يبق منه الآن سوى جزء صغير لان المدينة باتساع نطاقها ونموها الكثير من ناحيتى الشمال والغرب قد اجتازت هذا السياج بدون أن تمسه من ناحيتى الجنوب والشرق ويخترقها على اتجاه طولها مجرى الماء المسمى بالخليج .

وفى القاهرة الآ ثلاثون الف منزل يقطنها نحو ٣٠٠٫٠٠٠ من السكان . وهى مقسمة الى حارات يتجاوز عددها الخمسين أهمها على ترتيب الاتجاه من الشمال الى الجنوب حارات : الشعراوى والازبكية والنصارى (وهى حارة الاقباط والارمن والشوام وغيرهم الخ) والروم (أى حارة اليونان) واليهود وتلافرنج والموسكى وزويله والازهر والمؤيد وباب الخرق وبركة الفيل والمغاربة

---

(١) هذه الاكام مرتفعة ارتفاعا وافيا وقد اقام الفرنسيون أيام الحملة اليونابرتية عليها استحكامات وقلاعا سهل بواسطتها التسلط على المدينة عند الحاجة . ولما كانت تلك الاكام حائلا منيعا دون انبثاث الهواء فى أحياء القاهرة وشوارعها وازقتها فقد كان فى نيتهم ازالتها . ولكنهم عدلوا عن ذلك لصعوبة هذا العمل وطول ما يلزم من الزمن للقيام به . وقد كان ابراهيم باشا أول من أقدم على تنفيذ المشروع اذ ازال أكمتين عظيمتين كان يبلغ ارتفاع كل منهما نحو ٢٠٠ متر وكانتا تشغلان فيما بين بولاق وفم الخليج مسطحا من الارض مساحته كيلو متر مربع وظل العمل قائما على قدم وساق نحو خمس سنوات

فانتفع بالتراب المرفوع فى ردم المستنقعات الاسنة المجاورة للقاهرة وسويت الارض به ومهدت تمهيدا حسنا مكن أولياء الامر من غرس الحدائق الغناء فى مكانها أما سمو الوالى محمد على فقد أزال أكمة عظيمة كانت تسد طريق شبرى وكانت تتلو الأكمتين السالفتى الذكر ولست بمتردد فى القول بأن ازالة هذه الاكام كانت من أنفع الاعمال الجسيمة التى تمت على عهد محمد على والى مصر .

وطيلون (وهذه الحارة أقدم حارات مدينة القاهرة) والرميلةوقره ميدان والقلعة .

وبالقاهرة أكثر من سبعين بابا بعضها من الداخل واهمها فى الجنوب : باب السيد وباب طيلون وباب السيدة وباب القرافة . وفى الشرق : باب الوزير وباب الغريب . وفى الغرب من جهة النيل : باب اللوق وباب الناصرية . وفى الشمال : باب الحسينية وباب النصر وباب الفتوح والبابان الاخيران اثران هندسيان جليلان (وباب النصر يرجع تاريخ انشائه الى عهد السلطان صلاح الدين) وباب الحديد .

وشوارع تلقاهرة مثلها مثل سائر المدن الاسلامية معوجة كثيرة الالتواء والانعطاف والانكسار تقاطعها أزقة منها مالا يتجاوز عرضه احيانا أكثر من ثلاثة أو أربعة اقدام وعطفات لا منفذ لها .

وعدد الطرقات الأصلية اى الكبيرة فيها يزيد على مائتين وأربعين طريقا . وهى غير ما يعترضها من الازقة والعطفات وعددها ثلاثمائة من هذه ومثلها من تلك . وتتغير أسماء الشوارع غالبا ومن اكثرها اهمية شارعان يخترقان المدينة فى اتجاه طولها احدهما هو الممتد من باب السيدة الى باب الحسينية ويبلغ طوله ٤٦٠٠ متر والثانى يساير الضفة اليمنى من الخليج ابتداء من القنطرة الجنوبية المسماة بقناطر السباع الى قرب باب الشعرية. وهناك خمس طرقات تقطع المدينة فى اتجاه العرض منها ثلاث تتجه من القلعة الى النيل .

وفى القاهرة اربعة ميادين كبيرة هى : ميدان قره ميدان وميدان الرميلة بجنوب المدينة وميدان بركة الفيل فى وسطها وميدان الازبكية فى شمالها الغربى وهذا الاخير هو اكبر الميادين وأفسحها اذ يبلغ

مسطحه داخل مسطح ميدان العرض العسكرى بباريس المعروف باسم (شاندومارس) . والى الجانب الغربى من الازبكية البيت الذى سكنه الجنرال بونابرت أيام الحملة الفرنسية . وتلك الميادين يغمرها المـــاء فى أيام الفيضـان الا ميدان الازبكية الذى رفع سطحه بعض الشىء ومهدت أرضه وغرست فيه اشجار وجر اليه المـــاء بواسطة قناة .

وفى وسط المدينة أسواق كثيرة بعضها حقيق بالذكر كســـــوق الغورية حيث تباع الشيلان الكشميرية والحرير الموصلى والاقمشة الواردة من الخارج وسوق الاشرفية حيث تجار الورق والخـــان الخليلى حيث تجاز الجواهر والنحاس والسجاجيد وسوق النحاسين وفيه تجار المصوغات وصناعها وسوق البندقانية حيث تجـــــار العقاقير والخردوات وسوق الحمزاوى وفيه تجار الجوخ وســـوق السروجية حيث تصنع وتباع سروج الخيل وغيرها وسوق السلاح وفيه يصنع السلاح ويباع وسوق الجمالية حيث تجار البن والتبغ الوارد من الشام .

أما شارع مرجوش الكبير (أمير الجيوش) فيباع فيـــــه بالتجزئة أثواب الاقمشة المنسوجة فى القطر المصرى وهناك وكالة الجلابة التى يباع فيها الارقاء المجلوبون من وسط افريقية .

وبالقاهرة أربعمائة مسجد الكثير منها متخرب او آيل الى السقوط وأشهرها من جهة النمط الهندسى مسجد عمر بن العاص المبنى سنة ٢٠ من الهجرة (٦٤ من الميلاد) ومسجد الحاكم العبيدى المشيد سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٧ للميلاد) على عهد الفاطميين ومسجد السلطان حسن شاه فى سنة ٧٥٧ للهجرة (١٣٥٤ للميلاد) أحد السلاطين المماليك المعروف بهذا الاسم . وقد قضى البنـــاءون فى فى بنائه ثلاث سنوات قال المقريزى : كان ينفق عليه فى اليـــــوم

الف مثقال من الذهب . ومسجد طيلون بنى سنة ٢٣٨ للهجـــرة (٨٥٠ للميلاد) بناه السلطان أحمد بن طولون ومســـجد المؤيد أنشأه فى سنة ٨٢٠ للهجرة (١٤١٥ للميلاد) السلطان أبو النصـر المؤيد شيخ ومسجد السلطان قلاوون سيف الدين ومسجدالسلطان برقوق بنى سنة ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٥ للميلاد) ومسجد السلطان قايتباى بنى سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٣ للميلاد) ومسجد الســيدة زينب بنى سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٠ للميلاد) ثم مسجد الازهر وهو أشهر المساجد على وجه الاطلاق .

وللمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم نحو ثلاثين كنيسة ومصلاة . أما اليهود فلهم عشر بيعات .

وفى الاحياء التجارية والصــناعية نحو الف وثلاثمـــائة وكالة

وفى أنحاء متفرقة من القاهرة ألف ومائتا قهوة وثلاثمائةصهريج وسبعون حماما أشهرها بالاتساع وفخامة البناء وحســن الرياش حمام يزبك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمـــام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية الخ .

وفى ظاهر القاهر ثلاث بقاع للمقابر شهيرة باتساع نطاقهـا لان مسطحها يشغل أكثر من ربع مسطح هــذه المدينة . وهى القبه بحرى السور وترب قايتباى فى الشرق وترب السيدة أم هاشم فى الجنوب وفى هذه المقابر الواسعة قبور الخلفاء وبعضها آية فى الجمال الهندسي . أما مقبرة القبة فبها قبر الملك العادل وقبور أخر لبعض السلاطين والبكوات المصرلية أى المماليك .

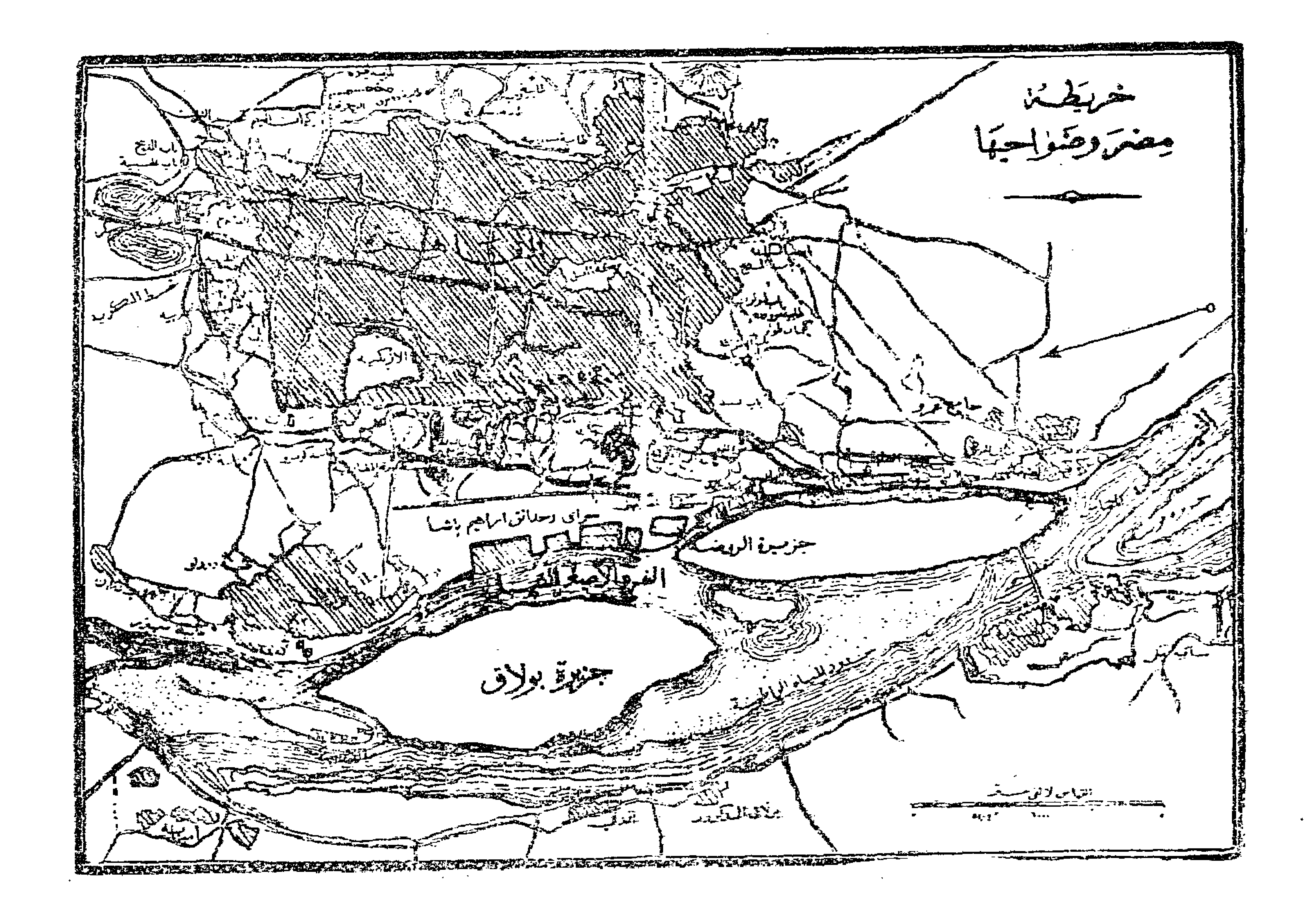
ولم يكن بالقاهرة فى الزمن السابق سوى مستشفى واحد هو المستشفى المعروف بالبيمارستان وسيأتى الكلام عليه فى غضـــون الفصل الخاص بالحالة الحاضرة للطب فى القطر المصرى . وفى

ميدان الازبكية الآن مستشفى ملكى جميل يحوى سبعمائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء . ويتبع هـــذا المستشفى مدرسة للولادة ومستشفى للمجاذيب . كل هـــذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الواقع فى الطريق بين القاهرة الكبرى ومصر العتيقة قرب المكان الذى كانت فيـــه عزبة ابرتهيم بك على ضفاف النيل . ويحوى هذا المستشفى الفا وثمانمائة سرير .

وبالقاهرة غير العدد العظيم من المدارس الخاصة او الملحقة بالمنشآت الخيرية كالمساجد والاسبلة وأحواض المـــاء مبان عديدة مخصصة للتعليم والتربية .

وفيها قصور جميلة وسرايات واسعة منها ما يملكه ســـمو الوالى وكل من ابراهيم باشا وعباس باشا والدفتردار بك حـــول ميدان الازبكية وقصر ابراهيم باشا كجك (الصغير) الذى يشغل من المدينة مكان السرة من الجسم وقصور أخرى لغيرهم كقصر محمود بك لا أتصدى للكلام عليها تقية الاسهاب فى الموضوع . وعـــلى ضفاف النيل قصر لابراهيم باشا وآخر للدفتردار بك وهما ممـــا يلفت النظر بانفساح الارجاء ورشاقة البناء .

أما القلعة فالى الجنوب من القاهرة على الجبل الاخـــير من سلسلة جبال المقطم وهى تحكم المدينة وقد أنشأها فى مكانهـــا السلطان صلاح الدين الايوبى وليس لها فى الحقيقة أهمية ما من الوجهة الحربية لان هناك جبلا آخر يتسلط عليها انشأ محمد على فيه قلعة صغيرة تعوض ما ينقص القلعة الاصلية من جودة الموقع ومزيته والوصول الى القلعة بطريقين منحدرين منحوتين فى الصخر أحدهما واقع الى الشمال ويفضى الى الباب المشهور باسم باب العزب الآخر الى الشرق ويؤدى الى الباب المعـــروف ببـــاب


خريطة
مصر وضواحيها
جزيرة بولاق
جزيرة الروضة
سراي وحدائق ابراهيم باشا
جامع عمرو

الانكشارية . وقد دمرت القلعة كلها تقريبا فى سنة ١٨٢٤ ميلادية عقب انفجار مخزن للبارود منحوت فى الصخر فان ما كان بها من المبانى عامئذ سقط كله أو بعضه ولكن «محمدعلى» لم يلبث أن أعاد بناءها كلها تقريبا .

وبالقلعة القصر المعد لنزول الباشا كلما جاء الى القاهرة . وبها أيضا بئر يوسف الذى سمى كذلك نسبة الى السلطان يوسف صلاح الدين الايوبى الذى أمر بحفرها فيها وهى بئر مربعة الشكل منقسمة فى اتجاه العمق الى قسمين ويبلغ طول عمقها ٢٨٠ قدما . وقاعها يستوى مع منسوب نهر النيل . وينزل اليها بسلمحلزونى فى نهاية القسم الاول منه ساقية ذات عجلات يديرها ثوران فيرتفع الماء من القسم الاسفل الى هذه الساقية التى يرتفع الماء منها الى ظاهر الارض عند مدخل البئر بمثل الوسيلة المتقدمة وانما حفرت هذه البئر لدرأ خطر قلة الماء فى القلعة اذا أصاب البوابات (العيون) التى تحمل ماء النيل اليها عطب أو قطعت فى جهة ما من جهاتها بفعل فاعل . على أن بالقلعة صهاريج عديدة يكفى واحد منها بضعة آلاف من الرجال سنة كاملة .

وبالقلعة أطلال دارسة لقصر السلطان صلاح الدين الايوبى والعمل بها متواصل الآن لانشاء مسجد كبير بها أمر بانشائه سمو الوالى وفيها أيضا دار للصناعة ومسبك لصب المدافع ومعمل لصناعة الاسلحة ومصانع لاعداد معدات الفرسان والمشاة ولوازمها ومطبعة ودار لضرب النقود يصنع من النقود الذهبية فيها كل سنة ما تعدل قيمته خمسة ملايين من الفرنكات .

وتبتدىء حركة الاعمال فى القاهرة منذ الساعة السادسة من الصباح وتنتهى عند اشتداد القيظ فى ساعة الزوال فيسود السكون ويظل سائدا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . ولقد

أجمع الرحالة الذين كتبوا عن مصر على غرابة ما تقع عليه الانظار من المرائى فى الشوارع والاسواق والميادين لاختلاط الاهلين على تعدد أجناسهم وتباين لباسهم وذكر كل منهم ما شاء ان يذكـــر من متناقضات تلك المناظر الغريبة فوصف الغنى صـاحب الجـاه بملابسه الفاخرة المزركشة بالذهب الى جانب الفقير ذى الثيـــاب الرثة والاطمار البالية وصاحب العمل مارا بخطوات سريعـة امام المتعبد الزاهد الذى يتمطى بلا اكتراث فى الطريق فتأتى اليهالنساء اللائى امتلأت رؤوسهن بالخرافات وباطل المعتقــدات ليلمسنه ويربتنه للتبرك به اعتقادا منهن أن هـــذا الفعل لسوف يذهب بأمراضهن ، كما وصف أولئك الناس من الامم العـديدة والاديان المتخالفة والمذاهب والشيع المتباينة بالاوصاف الجثمانية والمـلابس الغريبة يتحلل هذه الجمع النســـاء اللائى يشبهن الطيف المبهم والسر الغامض وقد تغطين بأرديتهن واخفين ملامح وجوههن الا ما كان من عيونهن كى يهتدين بها الى السبيل . دع ما هنـــالك من اختلاط الحمير بهذا الجمع الكثيف تشتـــق زحامه بدافع من استفزاز السائق الشـــاب النشيط المتحمس اياها بالضرب تارة والوخز اخرى ، الى جوارها الجمل البطىء النهضة الذى يشعر ثقل مشيته بشىء من الوقار ، وعلى مقربة منه جواد السرى مطهما بأحسن ما تطهم به الدواب ومحلى بأجمل ما تحلى به من مظاهــر الابهة والجلال ، الى جانبه البغلة التى تحمل الشخص الفقيـــه البصـــير بعلوم الشريعة تسير الهوينا بخطوات منضبطة القياس لا تزيد على ما يريده الراكب ولا تنقص عنه ، الى جانب ذلك كله الحواة والمشعوذون يدخلون على المارة السرور والدهشة بغريب العابهم وحيلهم . والقصاصون متصـــدرين فى القهـوات لرواية القصص والحوادث على مسامع المختلفين اليها من ذوى البطـالة والمغرمين بالتدخين وينضاف الى هذه الغرائب ما يتركه فى النفس من الاثر المنظر الخاص الذى تطبعه القاهرة فيها بشكل بيوتها ذات

السطوح المنبسطة وشوارعها المتلوية تلوى الثعبان فى انسيابه وما لا حصر له من منارات المساجد .

فاذا مثلت خاطرك هذه المناظر مجتمعة كان لك أن تتخيل صورة هذه المدينة وتعتقد ان لا مدينة سواها على وجه الارض تشبهها فى طابعها العربى الخاص الا ما كان من المدائن التى ورد وصفها فى حكايات الف ليلة وليلة .

اما بلدة بولاق فالى الشمال من مدينة القاهرة يفصلها عنها سهل ضيق وموقعها على ضفة النيل وهى تقوم للقاهرة فى علائقها التجارية مع الوجه البحرى مقام المرفأ وبها معامل لصنع الجوخ وغزل القطن ونسج الاقمشة ومسبك لصهر الحديد وورشة لبناء السفن النيلية ووكائل ومخازن ومستودعات كثيرة للتجارة وكذا قصر لاسماعيل باشا توجد به الآن مدرسة الهندسة .

وبمصر العتيقة مستودعات للحبوب يعرفها العامة باسم شون يوسف وهى عبارة عن سبعة أفنية مربعة مبنية الاسوار بالآجر . وفى هذه الافنية أكداس شاهقة من القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب .

٤١ ــ بنى سويف

بلدة بنى سويف واقعة فى ملتقى الخط ١٥ ٥٢ ٥٢٨ من الطول الشرقى بالخط ١٢ ٩ ٥٢٩ من العرض الشمالى وكانت تعرف قديما باسم (بتوليمائيدون) وسميت باسمها الحالى الذى معناه بتفسير أهلها « بنى السيوف » نسبة الى واقعة بالسلاح الابيض كانت هذه المدينة ميدانا لها . ويقرب عدد سكانها الآن من ٦٠٠٠ نسمة والحركة التجارية فيها أكثر ما يكون نشاطا فى مصر الوسطى . وفيها مصانع السجاجيد الصوفية والاغطية والملاء

القطنيـــــة والريطات التى اشـــتهرت بها قديما وفيهـــا الآن مصـــنع مهم للاقمشـــة القطنيـــة وموقعهـــا بالقـــرب من أحد مصاب البحر اليوسفى الذى يرسل ماءه الى بلاد الفيوم . والى موقعها هذا يرجع الفضل فى أهميتها التجارية التى ما برحت محافظة عليها حتى الآن .

٤٢ ـــ مدينة الفيوم

أكبر مدائن اقليم الفيوم الخصيب التربة وموقعها فى مدخله وقد بنيت بأنقاض مدينة (كروكوديلوبوليس) القديمة أى مدينة التماسيح وعلى شطر من موضعها . و (كروكوديلوبوليس) هذه هى التى بدل بطليموس فيلادلفوس اسمها باسم مدينة أرسينوه تكريما لاخته وتخليدا لذكراها . ويبلغ محيطها الآن نحو الفرسخ ويخترقها فرع من البحر اليوسفى . وكان أمراء المماليك يقصدونها فى الايام السالفة للنزهة والتماس الراحة وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة .

٤٣ ـــ فيـــديمين

اجمل قرى اقليم الفيوم على وجه الاطلاق وهى مؤلفـــة من مجموعتين من المساكن ، يسكن الاولى المسلمون والثانية الاقباط وتحيط بها أشجار الفاكهة التى يكسب تكاتف أغصانها وتشـــابكها هذه القرية منظرا جميلا . واذا جاءها السياح أطلعهم أهلها على شجرة زيتون قديمة يزعمون أنها أم أشجار الزيتون كافة فى القطر المصرى ويقدرون لهذا السبب عمرها بعشرة قرون . وهى تأتى كل سنة بمحصول تحسب زنته بأربعمائة كيلو جرام من الزيتون . وهو ما جعل سكان فيديمين يحترمونها ويحافظون عليها .

٤٤ ـــ المنيـــــا

واقعة فى ملتقى الخط ٣٥ ٢٨ ٥٢٨ من خطوط الطول بالخط

٢٠ ٢٨ ٢٨° من خطوط العرض الشمالى وموقعها على الضفة الغربية من النيل . وهى حسنة المبانى منتظمة بعض الشوارع بها جملة مساجد متينة البناء دقيقة الهندسة وفيها فاوريقة لنسج الاقمشة القطنية .

٤٥ ــ الاشمونين

بلدة عدد سكانها من ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ نسمة وهى على الضفة اليسرى من النيل .

٤٦ ــ منفلوط

بلدة على الضفة اليسرى من النيل عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس

٤٧ ــ أسيوط

مدينة واقعة فى ملتقى الخط ١٧ ٢٣ ٢٨° من خطوط الطول الشرقى والخط ١٤ ١٣ ٢٧° من خطوط العرض الشمالى وتحسب عاصمة الوجه القبلى . والاراضى التى حولها خصبة وزراعتها ناضرة وحاصلاتها وافرة . وهى قائمة على أطلال مدينة (ليكوبوليس) القديمة على مسافة ربع فرسخ من ضفة النيل وحصونها كان يعتصم المماليك كلما زحزحوا عن الوجه البحرى وطوردوا اليها . ولذا ما برحت حافظة لشىء مما كان لها فى عهدهم من رفعة الشأن فان شوارعها أعرض من شوارع المدن الاخرى وأنظف وأسواقها عديدة رائجة وبها مسجدان جميلان وقصر لابراهيم باشا أنشأه حينما كان حاكما للصعيد وحمام عام ملحق بمسجد أنشأه بها محمد بك الدفتردار ومعملان أحدهما للغزل والآخر للنسج وهى محط رحال القوافل التى تفد من السودان والنوبة وعدد سكانها ٢٠٠٠٠ نفس .

٤٨ ـ اخميم

بلدة صغيرة على الضفة اليمنى من النيل عدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس الف منهم يدينون بالنصرانية وبها فاوريقة للقطن وهى قائمة على أطلال مدينة (بانوبوليس) القديمة .

٤٩ ـ جرجا

واقعة فى ملتقى الخط ٥١ ٣٤٥ ٥٢٩ من خطوط الطول الشرقية بالخط ٣٠ ٢٢ ٥٢٦ من خطوط العرض الشمالية وقائمة بالقرب من اطلال مدينة (بطوليمائيس) القديمة وعلى الضفة اليسرى للنيل . وهى أكبر مدن القطر المصرى بعد القاهرة والاسكندرية كما أنها من مدن الصعيد التى اتخذها المماليك ملاذا لهم ومعقلا عند مسيس الحاجة . وكانت فى عهد سبق عاصمة الصعيد كله وترى بها المساجد الفخمة الجميلة والاسواق الكبيرة وفيها الآن معمل لغزل القطن وتعداد السكان بين ثمانية آلاف نسمة وعشرة آلاف منهم ٥٠٠ يدينون بالنصرانية وفيها دير للمبعوثين الكاثوليك .

٥٠ ـ قنا

كائنة فى ملتقى الخط ٣٠ ٢٤ ٥٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٢٠ ١١ ٥٢٦ من خطوط العرض الشمالية وقائمة على اطلال مدينة (كينوبوليس) القديمة بالضفة الشرقية من النيل وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس تقريبا واليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير فهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى الى بلاد الحجاز أو التى ترد منها اليه عن طريق القصير .

والظاهر أنها كانت تصل النيل بالبحر الاحمر فى العصور السالفة بترعة لم يبق منها الآن أقل أثر . وفمها كان حيث توجد مدينة قنا الآن . وقنا مشهورة فى جميع أنحاء القطر المصرى بصناعة الخرزات (القلل) المشهورة فيها بالقلل القناوى وبها معمل لنسج الاقمشة القطنية . وتجاهها بلدة (دندرة) القائمة على أطلال مدينة (تنتيرس) القديمة المشهورة بهيكلها الجميل الذى لا يزال حافظا لكيانه حتى الآن .

٥١ ـ قوص

كانت تسمى قديما (ابولينوبوليس بارفا) وهى صغيرة بالضفة اليمنى من النيل وحركة التجارة فيها لا بأس بها .

٥٢ ـ اسنا

كانت تسمى قديما بمدينة (لاتوبوليس) وهى على الضفة اليسرى للنيل وحركتها التجارية لا بأس بها واليها تقصد القوافل الواردة من دارفور وسنار وتتخذها محطة لها وفيها أكبر واشهر سوق للجمال ويكتنفها من الآثار القديمة والاطلال الفرعونية ماسأفيض الحديث فيه بالباب المخصص للكلام على الآثار المصرية .

٥٣ ـ اسوان

مدينة واقعة فى ملتقى ٣٩ ٣٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٨ ٢٤ من خطوط العرض الشمالى . وهى آخر مدن القطر المصرى من جهة النوبة وقد اكسبها موقعها فى كل زمان أهمية لا تنكر . فقد كانت فى الازمان القديمة (واسمها وقتئذ سيين) معقلا حصينا وموقعا منيعا . وعنى العرب بتحصينها فلما سقطت دولة

الفاطميين دمرتها القبائل النوبية التى احتلتها واخذت عليهـا . وعند ما استولى السلطان سليم على مصر جددها على الضفـة اليمنى من النيل بالقرب من الشلال الاول وهى قائمة الان على منحدر من الارض تتخلله أشجار النخل . ومبانيها محاطـة بالمزروعات فكان منظرها لذلك آخذا باللب وسكانها الآن ٤٠٠٠ نفس تقريبا كلهم من العرب والبرابرة والاقباط وبعض الاتراك الموظفين .

وتجاه أسوان جزيرة الفنتين الصغيرة وعلى مقربة من الشلال الاول جزيرة فيله المشهورة بهيكل (أنس الوجود) وهى مع قلة اتساعها ، اذ يبلغ طولها ١٣٠٠ قدم ، ينبوع للآثار الثمينة لا ينضب معينه وبها بعض أشجار النخل وقسم منها مزروع .

يبقى علينا أن نتكلم اجمالا على مدينتين لاتحسبان من مصر بالنظر لكونهما خارج نطاق وادى النيل ولكنهما تابعتان له نريد بهما ثغرى السويس والقصير الواقعين على سواحل البحر الاحمر .

٥٤ — ثغر السويس

واقع فى ملتقى الخط ٥ ١٥ ٣٠° من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٥٩ ٢٩ من خطوط العرض الشمالى . كان له فى الازمان السالفة شأن خطير بسبب نقل البضائع الهندية . وكانت تسمى فى بادىء الامر مدينة(ارسينوة)ثم سميت بمدينة (كليوبتريد وبوليس) ولمرفأها الآن علاقات متواصلة بالثغور التى على سواحل البحر الاحمر ومكاسب أهلها من التجارة مـع بلاد العرب . وفريق من الحجاج الذين يقصدون الى الحجاز ينزلون منها فى السفن .

وكان لخط السفن التجارية الآتية من الهند اليها والذاهبة منها الى الهند تأثير فى المدينة اذ جعل لها فى العهد الاخير شأنا كبيرا دعا بفريق من الانكليز الى التردد عليها لمباشرة أعمالهم التجارية .

وبينها والقاهرة الآن طريق ممهد تجرى فيــه عربات من طراز الدليجانس لنقل السياح منها الى هذه العاصمة .

وفى السويس قنصل لانكلترا وعدد سكانها ١٥٠٠ نفس ومع انها قريبة من القاهرة فأنها تختلف عنها بالمرة من جهة شكل مبانيها ومن جهة أخلاق أهلها وعاداتهم وهى بالنسبة الى الهند كالطليعة بالنسبة الى الجيش . وسنرجع الى الكلام على هذه المدينة فى الفصل الذى سنعقده للكلام على المواصلات الكبرى المنوى تنفيذها بين النيل والبحر الاحمر .

٥٥ ــ القصير

قلت فيما سبق ان الوادى الممتد بين قنا والقصير هو الطريق الذى يسلكه الراغبون فى الوصول الى هذا الثغر وللقصير مرفأ صغير على البحر الاحمر وتجارة لا بأس بها مع سكان سواحلــه وهى محطة من محطات السفن الانكليزية وبها قنصلان أحدهما لانكلترا والآخر لفرنسا . وعدد سكانها ١٢٠٠ نسمة وتتبع اداريا مديرية قنا .

المسافات بين بعض مدن القطر المصرى (١)

من القاهرة الى الاسكندرية	٤١ر٦ فرسخا
ــ الى رشيد	٣٨ر٣ «
ــ الى دمياط	٣٦ فرسخا
ــ الى الصالحية	٢٤ «

---

(١) المسافات من القاهرة الى البلدان التى فى الصعيد مأخوذه بحسب مجرى النيل

من القاهرة الى بلبيس	١٠ر٨ فرسخا
— الى السويس	٢٨ »
— الى بنى سويف	٢٢ر٢ »
— الى المنيا	٤٩ر٢ »
— الى أسيوط	٧٣ »
— الى جرجا	١٠٠ »
— الى قنا	١١٩ر٥ »
— الى طيبة (الاقصر)	١٣٠ر٩ »
— الى اسنا	١٤١ر٣ »
— الى ادفو	١٥٢ر٢ »
— الى أسوان	١٧٤ »
— من الاسكندرية الى رشيد	١٢ر٨ »
— من رشيد الى دمياط	٢٨ر٩ »

الباب الرابع

الديانات والمذاهب

الشائعة فى القطر المصرى

١

الاسلام وقواعده

القرآن — الوحدانية ورسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) — الملائكة — البعث ويوم القيامة — الجنة — جهنم — المطهر .

١ — الاسلام هو الديانة الشائعة فى مصر انتشر بها فى القرن السابع للميلاد المسيحى عقب فتحها على يد عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكان المصريون قبل هذا الفتح أى فى عهد الدولة اليونانية الشرقية يدينون بالنصرانية لا يعرفون غيرها لهم عقيدة ، ولكنها كانت مهيضة الجانب منحلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيعا متعادية ومذاهب شتى كالتى مزقت أحشاءها منذ القرون الاولى للميلاد فى بلاد المشرق .

والظاهر أن ما ترتب على هذا الانقسام من النزاع والجدل فى الدين كان قد أضجر المصريين ونفرت منه نفوسهم فلما فشلت بينهم الدعوة الى الاسلام أقبلوا عليه وأجابوا داعيه وبدلوا من عقيدتهم به ولم يبدوا فى معارضته مقاومة مبنية على الجد وصدق العزيمة .

وليس فى الآراء المتداولة عن الاسلام ولا فيما يسند اليه مـا يطابق الصواب ولذا أرى فرضا على أن أورد بعض الشىء عنـه على الوجه الصحيح لا أقصد بذلك تمجيد عقيدة لا أدين بها ولست من الدعاة اليها وأنما أرمى الى التعريف بها فى غضون الاشارة الى قواعدها وآدابها وعباداتها مراعيا الايجاز الكلى اذ ليس فى مقدور أحد أيا كان النطق بحكم صحيح على أمة مستمسكة بالدين كالامـة المصرية اذا كانت البيانات التى عنده فى أوكد أسباب حياتها العامة والخاصة مشوبة بالاغاليط والاوهام .

٢ ـ القرآن

يعتقد المسلمون أن هذا الكتاب أثر الوحى الهى أنزله عـلى رسوله . وهو مصوغ فى لغة عربية مبينة ومفرغ فى قالب يرى الائمة والعلماء أنه نهاية الابداع فى حسن المبنى ودقة المعنى وأن الانس والجن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا فالقرآن فى نظر المسلمين أجل الكتب . ولذا تراهم يتلونه أو يسمعون ترتيله خمس مرات فى كل يوم . وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ومن لم يكن حافظا له فهو ملم بكثير من آياته وسوره الاكثر ارتباطا بشئون الحيـاة واتصالا بأحوال المعاملات .

وفى القرآن مائة وعشرون سورة (الحقيقة ١١٤) يعتقـد المسلمون أنها أوحيت على محمد خلال الثلاث والعشرين السنة التى

انقضت قبل صعوده الى الرفيق الاعلى أى منذ بعثه وهو فى الاربعين من عمره .

٣ — الوحدانية ورسالة محمد

القواعد الاساسية للاسلام بسيطة تنحصر فى أمرين : الاعتقاد بالوحدانية معبرا عنها بشهادة أن « لا اله الا الله » وبرسالة محمد معبرا عنها بشهادة ان « محمدا رسول الله » فعلى مبدأ الوحدانية جمع محمد كلمة شعوب العرب وقبائلهم بعد ان كانوا قبله عاكفين على عباده صنف من الاصناف هو أغلظ وأفظع ما يمر بالخاطر من اصنافها فوضع بذلك أساس ديانتهم ووثق اركان ملتهم .

وفيما جهر محمد به من الدعوة الى الاسلام أن الدين عند الله كان ولا يزال واحدا هو الدين الذى بعث لتجديده بوحى على لسان جبريل الامين . وأن هذا الدين كان كلما طرأ ما يحرفه عن أصوله او يغير من اوضاعه أنزل الله كتبا على أنبيائه فى أزمان متفاوتة بحسب وقوع هذا التغيير فأنزل التوراه على موسى والمزامير على داود وغيرهما من الكتب على غيرهما من الانبياء ثم أنزل الانجيل على عيسى ، وهذه الكتب كلها حق وصدق والقرآن آخرها فالواجب اتباعه الى يوم يقوم الحساب وهو كلمة الله ونوره ، وباق الى الابد وغير مخلوق من أحد ، وهو فى اللوح المحفوظ لايدخل عليه تغيير ولا يتناوله نسخ .

٤ — الملائكة

من تعليم الاسلام أن لله ملائكة وكل الى بعضهم الاشراف على بنى الاسلام فهم رقباء عليه ، وان جبريل موكل بأنزال الغضب والسخط على المغضوب عليهم وعزرائيل يقبض الارواح فى النفس الاخير واسرافيل بالنقر فى الناقور يوم البعث والنشور .

٥ ـ البعث ويوم الحساب

يعتقد المسلمون بالبعث فقد جاء فى القرآن « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » وبحسب هذا الاعتقاد يجىء الحساب ثالثا وقد ذكر القرآن ايضا « ولله غيب السموات والارض وما امر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ان الله على كل شىء قدير » .

وجاء فيه أيضا : « فمن أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وأمامن أوتى كتابه وراءظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا انه كان فى أهله مسرورا » .

٦ ـ الجنة

فى العقيدة الاسلامية أن من يصدع بما يؤمر به ويعمل صالحا يجزى جنات النعيم . فقد جاء فى القرآن : « والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم ثلة من الاولين وقليل من الاخرين على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » .

ولم تكن جنات المسلمين مقتصرة على الملاذ المادية كما تذهب اليه أوهام العامة ، بل يتناول من صنوف السعادات الروحانية شهود الحضرة الالهية وهو أسمى هذه السعادات يفوز بها من رضى الله عنهم فأنعم عليهم بهذه النعمة العالية . وقد ورد فى القرآن :
« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين

الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم اجر العاملين » .

٧ — جهنم

فى تلك العقيدة أن ليس لاثيم ان يعتمد على بذل الصدقات واقام الصلوات ذريعة لمحو ماأتاه من السيئات بل يعذب فى نار الجحيم عشرة أضعاف ما عذب غيره ظلما وعدوانا .

٨ — المطهر

كثرت استعارات الاسلام من المسيحية الى حد قيل معه أن الدين الاسلامى لم يكن فى الحقيقة الا احدى الشيع المنشقة عن النصرانية . ذلك لانـــه نقل ماورد برمته فى الكتاب المقدس عن التكوين وهبوط آدم من الجنة وأن هبـــوطه هو ليكفر عن خطيئته ويتوب عن ذنبه ليجزى فى الآخرة خيرا . فقد جاء فى القرآن :

« الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وبمقتضى العقيدة الاسلامية ان الله يغفر لمن يموت مؤمنا قبل الندم على خطيئته ولكن هذه المغفرة لا تحق له الا اذا كفـــر عنها وتاب فى مكان يعانى فيه صنوف الآلام وهو الاعراف الشبيه بالمطهر فى النصرانية .

٢

آداب الاسلام

الفضـــائل ـــ الصلاح والتقوى ـــ القضاء والقدر ـــ صلة الرجل بالمرأة .

٩ ـــ الفضائل

يحض القرآن عـــلى التمسك بعرى الفضائل وترك النقائص والرذائل واجتناب الكبائر فهو والمسيحية فى تعزيز الآداب سواء . وأكبر الفضائل التى تحلى بها الاسلام وحافظ عليها المسلمـــون الزكاة . فالمسلم الذى حسن اسلامه وصدق ايمانه هو الذى يؤدى زكاة العشر عن ماله يدفعها لذوى العوز والحاجة . وفى القرآن نصوص صريحة على تحريم الربا وحث على نسيان الاهانة وتحبيذ الصراحة فى القول والتواضع والكرم والعفة والصبر الخ .

١٠ ـــ التقوى

التقوى فى نظر المسلمين رأس الفضائل وعمادها اذ أن الله لا يقبل الطيبات من الاعمال ما لم تكن مقترنة بها . فمن أحب أن تتوافر فيه صفات التقى والصلاح وجب عليه الاحتراز من ارتكاب الخطيئة بجارحة من جوارحه السبع تقية أن تصير لصاحبها أبوابا تفضى به الى نار الجحيم . أما هذه الجوارح فهى الاذنان والعينان واللسان واليدان والبطن والعورة .

أولا ـــ لايجوز التسمع لعزف الآلات الموسيقيـــة ولا اعارة الاذن لسماع القبيح من كذب ونميمـــة وفاحشة ولا سماع الغناء والتغنى بالقرآن أو الصلاة .

ثانيا ــ يجب تنحية النظر عن المحرمات ، فما لا يجوز لمؤمن أن يطلع من رجل على مابين سرته وركبتيه ولا لا مرأة أن تطلع من نظيرتها على مابين سرتها وركبتها .

كما لا ينبغى للمسلم أن ينظر على السرة والركبة بل ولا الظهر والبطن من محارمه . أما غيرهن فيكون من الاثم اطلاعه على أكثر من وجوههن وكفوفهن واقدامهم سواء أكان الى ذلك مسوقا بدافع شهوة أم بغيره او كانت المرأة المنظورة مليحة أم قبيحة شابة ام عجوزا . وهذه القواعد لا تسرى على الزوجة الشرعية ولا على الامة .

ومن الواجب الامساك عن التطلع الى ما بداخل دار الغير بالتسمع من وراء الابواب أو النظر من خلال الشقوق والثقوب كما لا يجوز النظر الى المسلمين بعين الازدراء والاحتقار .

٣ ــ ينبغى صون اللسان عن الكذب والغيبة والوشاية ومدح النفس والمراء وخلف الوعد ونقض العهد .

واللعن خطأ كبير ينتزع من مرتكبه ثواب ما أسلفه من حسنات . واذا كان متزوجا فقد انحلت عقدة زواجه واذا ندم على ما فعل اعتبر دخيلا فى الاسلام .

٤ ــ رفع اليد بالايذاء على أحد أو مدها للاستيلاء على طعامه ولمس النجاسات بها من غير ضرورة ، كلمس الميتة ، فعال مخالفة لمقتضى الشريعة الاسلامية .

٥ ــ يجب اجتناب مواقع الشبه ، والدخول بلا اذن على دار الغير والاعتداء بالاذى كالضرب على قريب واتلاف سجادته او حصيرته أو أى شىء آخر من متعلقاته .

٦ — أما خطايا البطن وأوزارها فتتقى بالامتناع عن تناول المحرم من الطعام والبعد عن الشره اليه والافراط فيه .

٧ — أما خطايا الفرج التى تعاقب عليها الشريعة الاسلامية عقابا أشد صرامة من عقاب الخطايا الاخرى فهى: اللواط والمواقعة أثناء الطمث والوضع الخ .

١١ — القضـــــاء والقدر

عقيدة القضاء والقـــــدر لا تنتزع من المرء فى دائرة الآداب والاخلاق والفضل وعدمه كل ارادته ولا تستلب منه حرية تصرفه . ولقد غالى المتصدون للبحث فى القضاء والقدر عند المسلمين فى المسند اليهما من التأثير فى المقدور للمسلم من السلوك الذى يسلكه والشعور الذى يستشعر به . نعم ان اعتقاده بالقضاء والقدر قد أودع فيه غريزة الاتكال والرضا بما يأتى به الدهر من المحن وينزل من النوازل الخاصة والعامة ، ولكن لا صحة لمـــا زعمه الزاعمون منهم من أن ذلك الانتقاد قتل فيه الشعور فأصبح لا يميز بين الحق والباطل والحالى والعاطل .

ليس فى التسليم بالقضاء والقدر ما يكبل المسلمين بأغـــــلال الجمود أو يلزمهم ملازمة الثبوت والاستقرار . فانهم وان تلقـــوا ضمن مبادىء دينهم ما يفيد أن الحذر من القدر ادعـــاء بالخلود ، مطالبون دينيا بالنهوض الى اطفاء الحـــــريق اذا شب فى دورهم ومغادرتها اذا كانت آيلة الى السقوط لحادث ما كالزلزلة وغيرها واللياذ بالفرار من الفيضان واتخاذ كل ما يعن لهم من الوســــائل التى يمليها العقل وتحكم بها غزيرة حفظ الذات .

١٢ ـــ صلة الرجل بالمرأة

نظمت الآداب الاسلامية علاقة الرجل بالمرأة على قاعــــدة احكم وأطبق على العقل مما يتبادر الى الذهن أول وهلة . حقــا ان تعدد الزوجات فى الاسلام مباح اباحته فى جميع بلاد المشرق ولكنه فيه مقيد بحدود صريحة اذ جاء فى القرآن : « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » . وقد أصلحت الشريعة حالة المرأة فى الشرق اذ قضت بأن لايتم زواج الا بصداق من المــال يدفع الرجل آجله الى زوجته فى حالة طلاقها . وفى المواريث قضت تلك الشريعة بأن ترث الاخت نصف حظ الاخ وأن تعتق الامة لمجرد وضعها بعد الحمل من مالك رقبتها .

ويحرم الاسلام الزواج بالوثنيات ولكنه يبيحه باليهــوديات والنصرانيات وفى القرآن آيات تقرر فضل الرجل على المرأة على أن يكون مظهر هذا الفضل الرفق بها والذود عنها ومن هذا القبيل قوله : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجــروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن ســبيلا ان الله كان عليا كبيرا » .

٣

العبـــــــادات

الصلوات اليومية الخمس ـــ التطهر ـــ المساجد ـــ النظــار والائمة والمشايخ والخطيب والمؤذنون والقيمون ـــ رمضان ـــ عيد

الفطر وعيد الاضحى — الحج الى بيت الله الحرام — الاولياء — المذاهب الاربعة — القيام بترويض الدين عند المسلمين — الاغذية المحرمة — الواجبات الدينية المفروضة على النساء — مخالفة الآداب الشرعية — وصية القرآن بالتسامح نحو المسيحيين .

١٣ — الصلوات اليومية الخمس

الصلاة هى الركن الاساسى من أركان الفروض الدينية فى الاسلام وكل مسلم مسئول عن اقامتها وادائها خمس مرات فى كل يوم . ومن المعتقدات المقررة فى الاسلام أن ملكا يهبط فى الفجر من السماء فيظل مقيما حتى الظهر فيسجل اسماء الذين قاموا بفرض الصلاة . فاذا اقبل الظهور طوى كتابه ولم يدون فيه اسماء المتخلفين عن أدائه ويا لشقاء هؤلاء ويا لشدة ما سيلقون من عذاب ! على أن فى يدهم محو هذه السيئة بالصلاة والصوم فى غير المواقيت المفروضة .

وبعد الظهر يهبط ملك ثان يظل مقيما على الارض الى ان يأزف أوان العصر (حوالى منتصف الساعة الرابعة بعد الزوال) ليدون اسماء المصلين كما فعل الاول ثم يهبط ملك ثالث لاجل ما بين العصر والمغرب فرابع وهو الاخير لاجل ما بين المغرب والعشاء الاخيرة (أى بعد غروب الشمس بنحو الساعتين) .

جاء فى القرآن : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » .

.. « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

١٤ — التطهـــر

التطهر قسم من أهم أقسام العقيدة الاسلامية فانه لا يجوز لمؤمن بحسب الدين الاسلامى أن يباشر فرضا ما من الفـــروض الدينية الا اذا تطهر من كل الادناس الجثمانية . والتطهر ثلاثة انواع : الغسل والوضوء والاغتسال . فالاول ما يراد به ازالة دنس مادى فى الجسم أو الثوب أو المكان الذى تقام الصلاة به . ولانقاء هذا الدنس يأمر المسلمون عبيدهم بأن يحملوا معهم سجادة صغيرة ليطرحوها على الارض متى آن وقت الصلاة ثم يصـــلون عليها . أما من لم تكن عندهم سجادة فيتخذون منها بديلا أرديتهم او معاطفهم .

أما الوضوء فهو غسل الوجه والفم والانف واليدين والذراعين الى المرفقين والقدمين الى الكعبين والمتوضىء يقرأ اثناء وضوئه بعض ما تيسر من القرآن او الدعوات .

أما الاغتسال فيكون من الجنابة والحيض الخ .

ولا خلاف فى أن هذا التطهر على وجوهه المتقدمة من اوفـق ما سنته الشريعة الاسلامية لمقتضى العقل والحكمة لانها تفرضـه على المسلم بمناسبة اقباله على أداء فرض من فروض دينه فتمهد له بذلك وسائل النظافة والوقاية الصحية التى لا جدال فى مزاياها ومنافعها بالبلاد كافة والشديدة الحرارة منها خاصة .

١٥ — المســاجد

يكثر المسلمون من الحفلات الدينية والاعياد ويحتفلون بها بما يستطيعون من مظاهر الافلة والجلال . ولهم عناية خاصة بتعهد

المساجد اذ تراها على الدوام فى الغاية القصوى من النظافة . وليس بداخلها شيء من آثار الزخرفة والتأنق فلا كراسى ولا مقاعد مستطيلة وغاية ما هنالك ان أرضها تفرش صيفا بحصير السمار وشتاء بالسجاجيد يجلس عليها المصلون فى وضع تستروح منه رائحة التواضع والتقوى . وتراهم قبل غشيانهم المساجد يخلعون أحذيتهم ونعالهم ثم يجلسون خاشعين . اما المساجد الكبرى فقد يرى الناس فيها ، مع جلوسهم على الوضع المذكور ، يبادلون الاحاديث وربما يأكلون او ينامون أو يزاولون عملا ما بدون أن يفوتهم قط أثناء ذلك اظهار الاحترام العظيم لتلك المعاهد .

وقبل وصول الحملة الفرنسية واحتلالها الديار المصرية كان من بين المساجد الكبرى جملة لا يسمح للنصارى ولا لليهود المرور امامها على صهوات خيلهم فأبطل بونابرت هذه العادة وجادل فيها العلماء فألزمهم الحجة اذ قال لهم : « اذا كان ما تقصدون اليه بذلك المنع طلبكم الاحترام والتوقير لمساجدكم فلماذا لا ترمون الى مثل هذا الغرض بالنزول عن دوابكم ؟ وهل مما يقبله العقل والعدل ان يطالب المرء أجنبيا بما لا يطالب نفسه به من علامات التوقير لدينه ؟ » . وعلى أثر هذه المناقشة لزم المسلمون حد الاعتدال فى معاملة الاجانب من هذا الوجه بل بلغ من تسامحهم معهم أن أذنوا لهم بغشيان المساجد لزيارتها والتفرج عليها من غير خوف عليهم . وانما يؤسفنى فى هذا المقام أن ألاحظ على بعض الزائرين تغافلهم عن الاحترام الواجب عليهم نحو تلك الاماكن .

والجدير بالنظر والاعتبار فى أمر المساجد ما الحق بها من المعاهد المختلفة التى لا خلاف فى فائدتها كالملاجىء لايواء الغرباء والمسافرين والكتاتيب العامة والمدارس التى ينشأ فيها الطلبة على التفقه فى الدين فيتخرج منهم المؤذنون للمساجد والقضاة والنواب الخ .

وعدد المساجد كبير جدا فى القطر المصرى بل هو أكبر مما يلزم له فى الحقيقة وهو فى القاهرة وحدها يبلغ الى الاربعمائة اهمها الازهر الشريف (١) وكلها عتيقة البناء جميلة النمط الهندسى. والذى يشيد منها الآن قليل جدا وليس فى شىء ما من حسن الانماط الهندسية التى كانت مرعية فى عهد الخلفاء المتقدمين .

١٦ ــ النظــار والائمة

يقوم بادارة كل مسجد ناظر بيده الانفاق على شئونه من ريع الاملاك المرصودة عليه واليه يرجع تعيين خدام المسجد من الامام الى صغار الخدم الموكلين بنظافته . والعادة أن يكون لكل مسجد امامان يأتم الناس بأحدهما الصلوات الخمس متى حلت مواعيدها الموقوتة . وليس لرجال الدين فى الاسلام طائفة خاصة ولا فرقة ممتازة على غيرها فى الهيئة الاجتماعية لان صفتهم الدينية لم تكن لاصقة بهم على الدوام كما هى عند القساوسة فى المذهب الكاثوليكى وانما هى وقتية اذا شاء الناظر انتزعها منهم فيفقدون مع مراكزهم صفة الامامة . ولهم حق التزوج لا يمنعهم عنه مانع اذ لا رهبانية فى الاســـلام .

ولمـــا كانت الاجرة التى يتقاضونها فى مقابل قيامهم بوظيفة الامامة زهيدة جدا وهى قرش واحد فى اليوم فانهم يضطرون فى الانفاق على عيالهم الى مزاولة مهنة أو الاحتراف بحرفة فترى منهم

---

(١) يشبه الجامع الازهر فى مصر جامعة السوربون فى فرنسا والطلاب من أهل الشرق جميعا يفدون عليه لتلقى العلوم الدينية والشرعية . ومما يدرس به علم الفلسفة على مذهب أرسطو واللغة العربية والتاريخ . وبداخل الجامع أروقة لسكنى الطلاب . رواق منها لكل من الاكراد والفرس والنوبيين والاتراك والهنود والمغاربة والحجازيين الخ وهم جميعا يتلقون العلم على نفقة الجامع .

العطارين والماورديين ومعلمى الكتاتيب . اما الذين لا يقدرون منهم على ممارسة الحرف أو لم يكونوا قد تعلموا حرفة خاصة فيرتلون القرآن فى البيوت مقابل مال يتقاضونه من اربابها فى آخر كل شهر وهم يكونون فى الغالب من فقراء الطلبة فى الازهر الشريف .

ومن أئمة المساجد تتألف الطبقة الوسطى من رجال الدين اذ فوق درجتهم توجد درجة العلماء المتفقهين فى الدين والقائمين بوظائفه ومناصبه والشيوخ او المشائخ ويقومون بخطبة يوم الجمعة والخطيب ويقوم فيه بالصلوات الخمس التى يؤديها الامام بقية ايام الاسبوع . والمؤذنون ويدعون المؤمنين الى الصلاة من أعلى المآذن والقيمون وهم صغار الخدمة فى المسجد .

١٧ — رمضان

صيام رمضان من فرائض الدين الاسلامى المتداولة الذكر فى أوربا لشهرتها . ويلبث شهرا كاملا . والمفهوم ان ليس فيه شيء من المزايا الصحية المتوافرة فى الصوم على الطقسين المسيحى واليهودى لان شهر رمضان لا يقع فى فصل معين من فصول السنة وانما يطوف بها جميعا على التدريج ويتم دورة طوافه فى كل ثلاث وثلاثين سنة مرة . ولم يكن شهر رمضان عند المسلمين ، خلافا لما اتجهت اليه الظنون فى أوربا ، شهر رفه ونعيم وتفرغ للمنكرات بل هو شهر حرمان من الشهوات فى الغاية القصوى من الشدة فان كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره مطالب برعايته. فقد جاء فى القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى الناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من ايام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على

ما هداكم ولعلكم تشكرون » ... « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر » .

ونصوص الدين فى الصوم محترمة الجانب اذ يتبعها المسلمون بدقة وانتباه ايس بعدهما وصف لواصف . نعم لا تخلو الحال من وجود أناس يجرأون على مخالفتها ولكنهم قليلو العدد جدا فضلا عن تسترهم على أنفسهم فى ذلك . ولم يكن الامساك فى الصوم قاصرا على حرمان النفس غذاءها طول النهار من كل شراب وطعام بل يتناول استنشاق الارواح العطرية والتدخين والنشوق . وهناك فريق من المتشددين يحرصون دائما على لفظ اللعاب محترزين من ابتلاعه .

أما الحوامل فلا يطلب منهن الصوم وكذا المرضى والمسافرون ولكن القليل من هؤلاء يميلون وهم فى حالة مرضهم او سفرهم الى الاستفادة من هذه الاباحة بل أن هناك كثيرين من الاتقياء والصالحين يتمادى بهم الحرص على رعاية فروض الدين حتى فيما تباح مخالفته لمثل تلك الاسباب فيضنون على أنفسهم بقطرة الماء يرطبون بها أفواههم أثناء سفرهم فى الصحراء حيث يشتد القيظ ويقاومون بذلك الاوار الشديد . ولقد شهدت بنفسى مرضى كثيرين فى بحران الحمى يأبون تعاطى الدواء المخفف لدائهم مؤثرين الموت على مخالفة راجب الصوم .

١٨ — عيد الفطر والاضحى

يتلو عيد الفطر شهر رمضان ومدته ثلاثة أيام يحل أثناءها الفرح الشديد والهناء محل شدائد الصوم وما تخلله من صنوف الحرمان ويتبادل المسلمون التهانى العيدية ويعفون بعضهم عن بعض .

أما عيد الاضحى فيتلو عيد الفطر بنحو ٧٠ يوما ويلبث اربعة أيام والغرض منه احياء ذكرى ابراهيم الخليل . وعيد الفطر والاضحى هما الوحيدان من أعياد السنة اللذان ينقطع الناس فيهما عن مزاولة الاعمال .

١٩ ــ الحج

من قواعد الدين الاسلامى الحج الى مكة والوقوف على جبل عرفات . وكل مسلم مطالب بأداء هذه الفريضة لا يعفيه منها الا الفقر والمرض . وفى مذهب أبى حنيفة أن فى استطاعة القادر على الحج اذا لم يشأ أداء هذه الفريضة بنفسه أن ينيب عنه فى ادائها غيره على شرط قيامه بنفقته كلها ولكن سواد المسلمين يغفلون القيام بشعائر ذلك الفرض .

والحجاج الذين ينالون لقب « الحاج » بعد أدائهم فريضة الحج بزيارة مكة والوقوف على جبل عرفات يقصدون الى الحجاز أما من طريق دمشق واما من طريق القاهرة والعادة أن يجتمع مسلمو افريقية وأتراك البانيا والروملى الذاهبون الى الحجاز فى القاهرة ثم يقصدو نمنها اليه . أما الفرس وأتراك آسيا الصغرى فيجتمعون فى دمشق ومنها يوالون السير الى الحجاز وجرت العادة أن يطابق تحرك القوافل من القاهرة للحج فى السابع والعشرين من شوال وقبل هذا التاريخ بأيام يحتفل بالمحمل وهو صندوق مربع من الخشب توضع فيه نسختان من القرآن يرسل مثلهما الى مكة فى كل عام .

وهذا المحمل مع ما يتبعه من عفش أمير الحج والصندوق المحتوى على صرة المال المرسل من قبل السلطان الى الحرم النبوى وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة ، وتشغل فى القاهرة من

الحرير الاسود ، فيطاف بها فى حفلة حافلة وموكب جليل بالسهل المعروف بالحصوة بحرى القاهرة ثم تتجه منه الى بركة الحاج التى هى آخر مرحلة لاجتماع الحجاج برسم السفر الى الحجاز .

وينقسم هؤلاء الحجاج الى ثلاث قوافل تتبع احداها طريق البر من الصحراء وتسرى عادة فى الليل فلا تقف الا الصبح بعد شروق الشمس بساعتين وتقضى النهار فى مكانها فاذا ما أقبل الليل تحركت للمسير من جديد فى الساعة الثانية بعد الغروب ويظل السفر براً مدة أربعين يوما تقريبا . أما الذين يخشون أخطار هذا السفر ومشاقه فيسافرون الى جدة عن طريق البحر الاحمر ، بالنزول فى السفن المسافرة اليها من السويس أو القصير .

والمقرر أن يجتمع الحجاج فى مكة خلال الايام الاولى من شهر الحجة فيزورون الحرم المكى الذى فيه الكعبة . والكعبة بناء صغير يبلغ طوله ٥٦ قدما فى عرض ٤٨ وارتفاعه ٨٠ . ويقول المسلمون أن بقاءها كان على يد اسماعيل وان الله أرسل اليه من السماء لمعاونته على بنائها أباه ابراهيم الخليل والملك جبريل. ويقولون أيضا أن جبريل أتى الى ابراهيم بالحجر الاسود المحفوظ منذ عهد طويل فى ركن من اركان الكعبة وما هو فى الحقيقة الا من الحجر المعروف بالبازلت (الصخر النارى أو البركانى) .

والمأخوذ من الروايات العربية المصدر ان ابراهيم قام بالتضحية فداء لابنه اسماعيل فى جبل عرفات الواقع على مسافة ستة فراسخ من مكة . وان الحج لا تتم شعائره الا اذا صعد الحجاج فى هذا الجبل الى قمته وحضروا فى ليلة التاسع من الحجة الصلاة التى تقام بها ، وفى اليوم التالى يقصدون الى سهل منى

ليختموا تلك الشعائر بتضحية الماعز والنيـــاق الخ ويقدرون عدد الحيوانات ذات القرن التى تنحر بهذه المناسبة من ثلاثين الف راس الى أربعين الفا .

ويعاد عودة ركب الحج من مكة الى القاهرة فى أوائل شهر صفر التالى وتسمى هذه العودة بنزلة الحج . والعادة أن يجتمع أهل الحجاج وأصدقاؤهم ومعارفهم للقائهم بمظاهر الفرح والسرور غالبا ويعلامات الحزن أحيانا اذا علموا أن الذين جاءوا للتمتـــــع برؤيتهم قد لقوا حتفهم أثناء الطريق بسبب ما عانوه فيه من انواع المشاق وصنوف الحرمان . أما الحجاج الذين يصلون ســــالمين فيحاطون بالرعاية والاحترام ويرمقون بعين الاعجاب لان النـــاس يعتبرونهم كأنهم طبعوا بطابع البركة والقداسة ولهذا يتــوسلون بهم الى الله فى اجابة دعائهم وتحقيق متمناهم .

ومع أن النساء غير مطالبات بأداء فريضة الحج ففى استطاعتهن القيام بها اذا شئن . ولكن لا يسمح لهن عادة بالصعود فى جبل عرفات الا اذا رافقهن أزواجهن وهذا هو السبب فى اجتهاد غير المتزوجات منهن فى الحصول على أزواج لهن يعقدون عليهن . وهذه الزيجات صورية طبعا لا تلبث أن تنحل عقدتها بالطلاق ولكن شوهد كثيرون من الازواج الصوريين يعبثون بهذا الحق الممنوح لهم على ان يكون مؤقتا وزائلا فيأبون حل عقدة الزواج .

٢٠ ـ الاوليـــــاء

الاولياء فى مصر كثيرون ولهم فى نفوس الاهلين منزلة رفيعـــة اذ تراهم يجلونهم ويتبركون بهم فى حياتهم فاذا ماتوا اقاموا لهم الاضراحة وبنوا فوقها البنايات الحسنة . وليس لتقديس الاولياء وحسبانهم كذلك صيغ مخصــــوصة واجراءات معينة كمــــا

هو عندنا فان الراى العام هو المحكمة التى تقرر ولاية الولى بما يحدث فى نفسها من الاثر الناشىء عن استحسان فعاله واعتبارها متفقة مع ما ينبغى من الورع والتقوى ليكون وليا جديرا بالتكريم حقيقة . وغالبا ما يكون ذلك الراى العام مخطئا فى حكمه فيصبح من لم يكن اهلا للولاية وليا ترمقه عين التجلة والاعتبار من جميع الامصار . اما العلماء فلا يذهبون مذهب العامة فى ذلك بل لا يعتبرون وليا ما تقر هذه ولايته .

وليس المعتوهون والذين الفوا العادات المستغربة وظهروا بالاحوال الشاذة التى تشبه الجنون بأولياء كما تتجه اليه ظنون البعض . حقا ان فى الدين الاسلامى ما يقضى برعاية جانبهم ولكنه لا يقيم لهم ولاية ولا يجعل لهم صفة تؤهلهم للتبجيل تبجيلا دينيا فاذا شوهد هنالك ما يخالف هذا المبدأ فهو مناقض للواجب ومضاد للقواعد الشرعية على الخط المستقيم .

٢١ — المذاهب الاربعة

المذاهب التى يتمسك المسلمون بها فى عباداتهم اربعة : مذهب ابى حنيفة ومذهب الشافعى ومذهب مالك ومذهب الحنبلى واكثر هذه المذاهب شيوعا فى مصر المذهب الاول وهو كذلك فى بقية انحاء الدولة العثمانية .

٢٢ — اداء فروض الدين عند المسلمين

الامر الذى يدهشك من المسلم ثبات عقيدته ورسوخ ايمانه فى نفسه رسوخا لا يتناوله شك او تزعزعه قوة بالغة من الشدة ما بلغت فلعقيدته فى نظره من سمو الرفعة وجلال القدر ما يلقيه فى الدهشة والاستغراب من مخلوقات الارض طرا كيف لا يدينون

بالاسلام . وقد جرت عادة المسلمين على تسميتهم ايانا بغير المؤمنين لانهم يرون منا الاحجام عن اداء فروض الدين كما انهم يسموننا بالكفار لانهم لا يشاهدوننا مقبلين على الصلاة . وترى المسلمين مستوفزين دائما للوثبة على من يهاجم دينهم بطعن أو انتقاد وعندهم كل مكان صالح لاداء فرض الصلاة فالطريق العام وحقل الزراعة والبيت الخاص بالسكنى سواء فى ذلك . وهم يصلون جماعة او فرادى ولو فى وسط يختلطون فيه بالاجانب لا يلويهم عن ذلك مانع او اعتبار ما .

وقد ذهب الناس فى أوربا الى القول بأن المسلمين اخذت تنبث فيهم الميول الجانحة الى ما يخالف الايمان والعقيدة . أخذوا ذلك على سبيل الاستنتاج من مشاهدتهم بعض المسلمين لا يراعون نواهى القرآن فيما يتعلق بتعاطى الخمور اذ هم يتعاطونها جهارا نهارا . ومفهوم أن هذه النواهى أكثر ما يكون ملاءمة لصحة الناس من اهل المناطق الحارة كبلاد العرب وامريقية التى اذا وجدت بها الخمور فانما تكون مما ورد اليها من البلاد الاجنبية لا مما صنع فيها . ولكن الحكم المتقدم خاص لا عام لانه اذا صح ما قيل من ان بعض أفراد الطبقة العالية التركية قد ترخصوا فى عقيدتهم الى حد اطراحهم رعاية النواهى الدينية فيما يتعلق بالخمر ظنا منهم أن فى هذا الفعل اخذا بأسباب المدنية الحديثة فلا ينهض هذا دليلا على ان المسلمين جميعا ازالوا بأيديهم حوائل النواهى الشرعية التى كانت تحول بينهم وتعاطى الخمور .

٢٣ — الاغذية المحرمة

من فضائل الديانة المحمدية وآثارها الحسنة فى النظام الاجتماعى عنايتها المتواصلة بتقرير جملة طيبة من الاحتياطات الصحية الجزيلة الفائدة . وهذه العناية وان استوجبت احيانا

رعاية بعض التفاصيل الدقيقة واستدعت شيئا من العسف فى تحتيم ما جاءت به من النواهى لا يسعنا الا الحكم بصوابها من حيث المبدأ . وبما أنها تناولت المشروبات الخمرية فقضت عليها بذلك القضاء المبرم ، اعتبرت وسائل النظافة الخارجية للجسم من الواجبات الدينية التى يتحتم القيام بها كان لا بد أن تتناول المطعومات أيضا . وفى الواقع فقد قررت فى هذا الشأن الخطير أصولا وقواعد لا خلاف فى صلوحها وفائدتها منها اعتبارها من مواد الغذاء النجسة التى يتحتم الامساك عن تناولها ، واليهود يشاركون المسلمين فى هذا الاعتبار ، لحوم الخنزير والحصان والبغل والحمار والسلحفاة والفيل والضوارى على أنواعها والجوارح والافاعى .

ومما حرم تعاطيه غذاء لبن الفرس والحمارة ما لم يمض عليه زمن معين فيه الكفية لتطهيره . وعلى كل حال فليس من الجائز استنفاد شيء بالاكل من أحشاء تلك الحيوانات وأعضاء تناسلها فانها محرمة قطعا ومما شدد الدين الاسلامى فى تحريمه الدم . وهذا التحريم هو علة ذبح الحيوانات أعنى قطع رؤوسها وما يرتبط بهذه الرؤوس من العروق تسهيلا لخروج دمها حتى اذا أكلت لا تكون محتوية أثرا ما من الدم . ويأكل المسلمون بلا مانع دينى لحوم الصيد ولكنهم لا يقبلون كثيرا على لحوم الطير المصيدة لتعذر استنزاف دمها كله .

٢٤ — واجبات الدين للنساء

النساء المسلمات غير مطالبات بكل ما يطالب الرجل به من فروض الدين فانهن نادرا ما يذهبن الى المساجد لاداء فرض الصلاة . ومع هذا فلم يرد فى الشريعة الاسلامية نص يمنعهن من الذهاب اليها للقيام به ولم يحرمه عليهن ، ولكنها أثرت اداءهن

اياه فى بيوتهن . ولما كان المسلمون يذهبون الى اعتبار وجود النساء فى المساجد صارفا للخواطر عما يلائم صفة الطهارة والقداسة اللاصقة بالمعابد فقد حرموا على النساء بالفعل ما أباحه الشرع لهن فى المبدأ من الصلاة فى المساجد .

٢٥ — مخالفة المبادىء الادبية

يحدث احيانا أن لايتفق العمل بفروض الدين الاخذ بصوره الظاهرة مع حقيقة المبادىء الادبية . فان التشيع الاعمى للدين اذا التقى فى المسلم بالجهل المركب استفزه الى اتيان المقابح والمنكرات ترى مثلا أن الذى يحرم نفسه جرعة الماء لدفع العطش فىالزمان والمكان اللذين يجيز الدين فيهما ذلك بلا حرج عليه يجترىء على السرقة او غيرها بلا ال ولا ذمة اذا أتاحتها الفرصة وربما اقدم على ارتكاب الآثام الغلاظ . ومن ذلك أن من المسلمين من يخالف نواهي الدين الصريحة فيما يتعلق باللواط ولكن هذه الآفة الخلقية ، والحق يقال ، أقل انتشارا بين العرب منها بين الاتراك ؛ على أن العرب أميل الى الانكار والكذب والحلف بالايمان الكاذبة . وقسمهم بالله وبالنبى مما يدعو البصير الى عدم تصديقهم فيه .

٢٦ — القرآن والتسامح نحو النصارى

اشتهر المسلمون فى أوربا بكراهتهم للمسيحيين وحقدهم عليهم فاذا كان سبب هذه الشهرة ارتكابهم فى أيام الحروب ضروب الفظاعة فى حق المغلوبين فمما ينبغى الجهر به أن مسئولية كراهتهم لا تقع على مبادىء الدين الاسلامى ، كلا فقد دعا القرآن فى أكثر من موضع بالتسامح نحوهم كما تدل عليه السور الآتية :

« ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

« وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم » .

وبالرغم من هذه النصوص الصريحة فى الحض على معاملة أهل الكتاب بالرفق والكرم والتسامح ومع ما يمكن قوله من العمل بها فى بعض الاحوال لا سيما وأن المسلمين لا يعاملون المسيحيين بالاضطهاد والعسف فمما لا نزاع فيه أنهم ينظرون اليهم بعين الازدراء والاحتقار . ولهذا الشعور فى نفوس المسلمين نحو المسيحيين أثر سىء فى المعاملات فان شهادة المسيحى ضد المسلم لا تقبل ولا يسلم بها كما أن المحاكم فيما تصدره من الاحكام والقرارات تلحق بكلمة المسيحى وصف الكافر بل وصف الملعون اذا كان ميتا وكان المسيحيون فيما سلف لا يجوز لهم الحلول فى وظائف الحكومة بل كانوا يستثنون من علامات الشرف ومظاهر التكريم فى الهيئة الاجتماعية واذا صدر حكم على أحدهم بالاعدام فكانوا يختارون لتنفيذه شر الاساليب وأوجبها لاهانته وتحقيره .

ومما ينبغى الجهر به فى هذا المقام أن تعصب العامة من الشعب كثيرا ما حال دون ظهور أى أثر لما كان يخالج الحكام من النيات الحسنة نحو المتمسكين بالديانات الاخرى غير الاسلام . ولكنا لا يسعنا الا الجهر قبل انتهاء هذا الفصل بأن العرب الاصليين أكثر تسامحا نحو الذميين من الشعوب الاسلامية الاخرى وأن المصريين يفوقونهم فى التسامح اما لما جبلوا عليه من الرقة ودماثة الاخلاق واما لما سبق لهم من الارتباط بالاوربيين .

٤

الديانات الاخرى والمذاهب المختلفة

اليهود ـ الاقباط اليعاقبة ـ الاقباط الكاثوليك ـ اليونان المنشقون ـ اليونان الكاثوليك ـ الارمن ـ الكاثوليك اللاطينيون ـ العداوات بين المذاهب المسيحية .

٢٧ ـ الديانات أو المذاهب الدينية الشائعة فى مصر بعد الاسلام هى الديانات والمذاهب التى يتمسك بها اليهود والاقباط والارمن واليونان المنشقون والاقباط والارمن واليونان الارثوذكس والكاثوليك من المذهب اللاطينى . ويبلغ عدد المنتمين الى هذه المذاهب المختلفة ٣٠٠٠٠ نفس .

٢٨ ـ اليهود

فى القطر المصرى نحو ٧٠٠٠ يهودى يقطن سوادهم الاعظم حيا خاصا بهم منهم ١٢٠٠ من القريين والباقون من الربانيين . وديانة اليهود محتقرة فى نظر المسلمين بمصر أكثر مما كانت محتقرة بأوروبا فى عصور التوحش والهمجية . ويرجع الى محمد على باشا الفضل فى استنقاذ اليهود مما كانوا يلقونه قبله من التصدى بالاهانة والاضطهاد فقد منحهم حمايته وعضده كما منحهما غيرهم من أرباب المذاهب الاخرى . ولهم فى مصر ثمانى بيعات أى هياكل العبادة .

٢٩ ـ الاقباط اليعاقبة

الاقباط المنشقون هم الشيعة الاكثر عددا والاعز فى مصر نفرا اذ يعدون ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا لهم ١٣٠ كنيسة وديرا فى أرجاء القطر ورئيسهم الدينى هو البطريك الذى يتولى كرسى البطريركية

معينا من الاساقفة ورؤساء الاساقفة واليه يرجع الاختصاص بتعيين النظار المكلفين بادارة الاديرة والكنائس .

والمفهوم أن المذهب القبطى مقتصر على مصر لا يوجد فى غيرها ومن طقوسه الاعتراف والتناول الربانى بنوعيه . ولا بد من التطهر بالاغتسال قبل الجلوس الى المائدة المقدسة وهم يختتنون كاليهود ومذهبهم مستمد من بدعة (أوتيكيس) المبتدع اليونانى من أهل القرن الخامس . والاقباط يذهب بعضهم مذهب الطبيعة الواحدة والبعض الآخر يذهب الارادة الواحدة مع الطبيعتين .

٣٠ ـ الاقباط الكاثوليك

بالقطر المصرى ٥٠٠٠ قبطى على المذهب الكاثوليكى . ولم تدخل الكثلكة بين اقباط مصر الا منذ عهد قريب . ولهم أسقف خاص بهم وقساوستهم أسمى ادراكا واوسع علما من القساوس اليعاقبة . والظاهر أن مذهب الكثلكة اثر فيهم فجعل لهم التفوق بالعلوم والمعارف على سائر المتمسكين بالمذاهب القبطية الاخرى .

٣١ ـ اليونان المنشقون

اليونان المنشقون بالقطر المصرى ٣٥٠٠ يونانى ينقسمون الى فرقتين الفرقة الاولى تتألف من اليونان المتناسلين فى القطر المصرى نفسه وهم السواد الاعظم ، والفرقة الثانية من اليونان الذين وفدوا على هذا القطر بعامل حب الكسب من التجارة . والمفهوم أن يونان الفريق الاول منتشرون بالوجه البحرى وهم سلالة الجاليات القديمة وأنهم اذا تمذهبوا بالمذهب الانشقاق فما ذلك الا لاتصالهم بالقسطنطينية عاصمتهم السياسية القديمة وشأنهم كشأن الاجانب فى تبعيتهم من الوجهة الروحية الى البطريك المعين من

اسلامبول . ولهم بالقاهرة ثلاث كنائس وهى دير مار جـــــرجس ودير القديسة كاترينه وكنيسة مارنيقولا .

٣٢ ــ اليـــونان الكاثوليك

اليونان من المذهب الكاثوليكى يبلغ عددهم ٣٥٠٠ تقريبـــــا سوادهم الاعظم من السوريين وهم تابعون منذ بضع ســـنوات الى أحد البطاركة فى أحوالهم الشخصية .

٣٣ ــ الأرمن

يعد الأرمن فى مصر ٢٠٠٠ نفس تقريبا اغلبهم تابع للمذهب المنشق ولهم قساوستهم وبطاركتهم وكنائسهم . ولفريق من الارمن الكاثوليك هيكل خاص لاقامة شعائرهم الدينية .

٣٤ ــ الكاثوليك اللاطين

الكاثوليك المتمسكون بالمذهب اللاطينى هم الجاليات الاوربيـــة ويقيم شعائر هذا المذهب فى الكنائس اللاطينيـــــــــة آباء الارض المقدســـــة ومتدينـــو القـــديس فرانســـوا وهــــم تابعــون الى جزيل الاحترام وكلى الشرف فى الارض المقدسة .

ولمبعوثى ينشر المذهب الكاثوليكى كنائس فى القطـــر المصرى وقد عين قداسة البابا أخيرا اسقفا لهم غيه .

والمعاهد الدينيـــة الكاثوليكيـــة وضعت منذ زمن بعيد تحت حماية فرنسا ومعلوم أن الملك فرنسوا الاول والملك لويس الرابع عشر شملا هذه المعاهد بوصايتهما ورعايتهما بأوامر اصدراها فى هذا الصدد .

٣٥ ــ العداوات بين المذاهب المسيحية

تشمل حكومة محمد على بحمايتها جميع الاديان والمذاهب على حد سواء بصرف النظر عما هو مستحكم بين بعضها البعض من أسباب العداوة والنفور . وليس فى هذه المساواة ما يبعث على الدهشة فان المسلمين يعتبرون تلك الاديان والمذاهب كلها مخالفة للاسلام وبالتالى غير مؤمنة وبين العقائد الدينية المختلفة التى يدين بها غير المسلمين من المصريين تنافر غريزى وتحاسد وتباغض وتخاصم افضى بهـا الى الخلاف المستمر والتنابذ . ولكن هذه المقابح زالت الآن وصار لا أثر لها لان «محمد على» بما عرف به من النزاهة والبعد عن المحاباة لا يؤثر أهل مذهب على أهل مذهب آخر ولا يناصره ضده واذا كان هناك ضرر يلحق بتلك الاحزاب الدينية فانما هو الضرر الناشىء من حملهم المسلمين بتلك الفعال القبيحة على احتقار المسيحية والنيل من كرامتها . وكان هذا الضرر قبل أن يتسلم محمد على أزمة البلاد متفاقما فقد كانت تلك المذاهب لانتقاضها على بعضها واستنهار الفساد بينها ، تتسابق فى شراء حماية لحكومة بأموال تنقدهـا اياها فلا يفوز بهذه الحماية منها ليغنم الامتيازات الا من بلغ الحد الاقصى من المزايدة فى سوق الدلالة . وكان الانسان لا يبعد أن يرى عندئذ أرباب الفتن والدسائس من المشايعين للمذاهب وقد توصلوا بقوة المال الى تحقيق ميولهم الشريرة من الفتك بأرواح خصومهم أو هدم كنيستهم أو استنزال السخط والاضطهاد عليهم وليس بعازب على فكر أحد أن العداوات من هذا النوع اذا أطلق لها العنان كان من أخص نتائجها تزجية فكرة محزنة الى اذهان المسلمين عن فضائل الديانة المسيحية وآدابها (١) .

---

(١) الناشر : اخالف رأى المؤلف .

الباب الخامس

الشريعة الاسلامية

وادارة العدل فى مصر

١

الشرائع والقوانين المدنية

الشريعة الاسلامية — البلوغ — الزواج والطلاق — الحقوق الابوية — الاوصياء — المدينون والمفلسون — الحجر — التسليف على رهن — المحبة — الميراث .

١ — الشريعة الاسلامية

ينبوع الشريعة عند المسلمين كما هو فى المدنيات الشرقية الدين وقوانينهم فى الشئون المدنية والعقوبات مستمدة من القرآن وحيث ان هذا الكتاب لم يقرر الاحكام بالتفصيل فى وجوه المنازعات فالقضاة يعتمدون فى تقريرها على الاسترشاد بما يأتى :

أولا ــ السنة وهي ما نسب الى النبى قولا أو فعــــلا أو تقريرا اى ما حدث أمامه من قول أو فعل فأقــره بالقـــول أو السـكوت .

ثانيا ــ الاجماع أى اجماع الصحابة الذين توفى عنهم النبى وهو راض عنهم او بعبارة أخرى هو المتفق عليه بالتواتر فى خلال الثلاثـة قرون الاولى للاسلام ويرجعون فى العمل بـه الى قول النبى « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ».

ثالثا ــ القياس وهو ما قررته العادة وجرى عليه الاصطلاح.

رابعا ــ الاستـقراء .

٢ ــ سن الرشد

قررت الشريعة الاسلامية أن يكون بلوغ الرشد للذكر والانثى ميعاد بلوغهما الحلم أى الثانية عشرة للذكور والتاسعة للاناث ، هذا اذا جهرا بأنهما فى هاتين السنتين قد بلغا الحلم . وأقسـما على ذلك . فاذا لم يجهرا ولم يحلفا فان سن الرشد لهما تكون ببلوغهما تمام الخامسة عشرة ، وفى هذه الحالة يجوز للذكر الحر حق التصرف فى شؤونه . فاذا مات أبوه فان وصيه يتولى ادارتها الى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره واذا أمسك الرجـل بزمام ماله فتصرفه فيه طبقا للقانون يعتبر صحيحا لا غبار عليه .

٣ ــ الزواج والطلاق

رأينا فيما تقدم أن الشريعة الاسلامية حددت بأربع عـدد الزوجات الشرعيات التى للمسلم أن يتزوج بهن ويتم الزواج شرعا بايجاب وقبول فى حضرة الشهود وبدفع صداق للزوجة اما معجـلا

كله واما معجلا بعضه ومؤجلا البعض الآخر . والخيــــار فى الطلاق يرجع فى الاصل الى ارادة الــزوج . ولذا ترى العــرب يسيئون استعمال هذه الحرية ويعبثون بها الى حد أن بعضـــهم ربما تزوج وطلق خمسين مرة . اما الاتراك فالطـــلاق بينهم نادر جدا . وعلى كل حال فللزوج المطلق أن يرجع اليه زوجتــــه فى الطائفتين الاوليين فاذا طلق ثالثة فلا تحل له الا بعقــــد ومهــر جديدين بعد طلاقها من الزوج المحلل .

٤ ــ حقوق الاب

وللوالد الخيار فى تزويج أبنائه القاصرين لمن يشاء وعلى اى وجه يشاء بدون أن يكون لهم حق ما فى الاعتراض على ســلطته أما الابناء البالغون فلا يمكن تزويجهم بغير رضاهم . وهـــذه القاعدة مستمدة من الاقتداء بمحمد فانه استشار ابنته فاطمة قبل أن يزوجها بعلى . وللوالد الحق فى ادارة اموال أبنائه القــاصرين بدون أن تلحقه مسئولية فيما لو أدركها ضرر كالذى يحتمل وقوعه اذا رهنها تأمينا لدين عليه او أنفقها فى احتياجاته الصحيحة .

٥ ــ الاوصـــياء

للوصى من الحقوق على القاصر ما للوالد بالسواء ما عدا الحقين الاخيرين اللذين تقدم ذكرهما . وأقرب الاهل الى والــد اليتيم أحق الناس بالوصاية عليه ، فاذا لم يكن لهـــذا اليتيــم ولى الولاية تؤول الى قاضى الجهة التى يقيم فيها .

٦ ــ المدينون والمفلسون

تبيح الشريعة الاسلامية حبس المدين حتى يعلن عجـــزه عن السداد . أما المفلس فيقع تحت طائلة الحجر الصحيح ولا يجوز

له التعامل مدنيا أو القيام بعمل ما يختص بأمواله الا بتصريح من القـــاضى .

٧ ــ الحجـــر

الذين يحجر عليهم هم : القصر والشيوخ المعتوهون والمجانين والارقاء والمسرفون والمفلسون . ومع هذا فانهم يعاقبون بالعقوبات المبينة فى الشريعة اذا ارتكبوا ما يجعلهم أهلا لها .

ولصاحب المـــال أيا كان حق التصرف فى ماله بالتنازل عنـــه لمن أراد على شرط أن لا يكون محجورا عليه .

٨ ــ التسليف على رهن

واذا سلف مالا فى مقابل رهن فان النفقات التى تســـتلزمها صيانة الشيء المرهون تكون على ذمته ويكسب دينه صفة الامتياز فى حالة وفاة المدين أو افلاسه .

٩ ــ الهبـــــة

ولصاحب المال بمقتضى ماله من حقوق الملكية ان يهب فى حياته ما شاء من ماله الى من يريد كائنا من كان . ولـــكن يبقى بيده الحق فى استرداد الهبة كلها أو بعضها والشريعة تجيـــز له ذلك وان تكن من جهة أخرى تستقبحه . ومع هذا فان الهبة لا تتم فعلا اذا مات الواهب والموهوب اليه او كانت بينهما قرابة أو كان الموهوب اليه لم يتسلم الهبة .

١٠ ــ الـــــوراثة

فى مصر كما فى بلاد الدولة العثمانية يرث الابناء بالتســـاوى

بما يتركه والدهم من الاموال فليس فيها ذلك الحق الذى يقضى بأن تكون الوراثة للاكبر فالاكبر من الابناء كما لا فارق ولا تمييز بين أبناء الزوجات الشرعيات وأبناء السرارى والجوارى ، أما الانثى فترث من مال الابوين ما يعدل نصف حظ الذكر . واذا توفى المورث عن بنات فقط فبمقتضى الشريعة ترثن ثلثى التركة سواء كن اثنتين او اكثر عددا . أما اذا مات المورث عن ابنة واحدة فلها بمقتضى الكتاب الحق فى نصف ما ترك والدها وفى الحالتين المتقدمتين يعود الثلث أو النصف الباقيان الى البنات الوارثات او الابنة الوارثة بعد التأكد من عدم وجود أقارب للمورث توزع تلك الحصص الباقية عليهم . واذا مات المورث عن والده ووالدته فان سدس تركته يؤول اليهما فى حالة ما اذا كان له أبناء . أما اذا لم يعقب فيرث الاب ثلثى ما ترك الابن والام الثلث الباقى . فاذا كان المورث أخوة فلا يصيب الام سوى السدس مما ترك ويؤول اليهم السدس الآخر . أما زوجة المورث أو زوجاته فلها اولهن جميعا الثمن مما ترك اذا كان له عقب والربع اذا لم تعقب والربع اذا اعقبت . وليس للرجل أن يتصرف على سبيل الوصية فى أكثر من ثلث ماله والواجب بعد وفاته سداد ديونه وما وصى به قبل كل شىء آخر .

٢

الجنايات والعقوبات

سب الدين — القتل — الضرب والجرح — الزنا — السرقة — الردة

١١ — سب الدين

فى الشريعة الاسلامية يقام الحد على من يسب الدين بالقتل ويقام هذا الحد أيضا على المزور وقاطع الطريق الخ .

١٢ ـ القتـــــل

عقوبة القتل القصاص ويملك تخفيفها ورثة القتيل باقتضائهم من القاتل مالا يدفعه فى مقابل ما اجترمه وهو دية الدم . وحوادث القتل تكاد تكون معدومة فى القطر المصرى .

١٣ ـ الضرب والجـــــرح

تعاقب جنايـــة الضرب والجـــرح بالقصاص . العين بالعين والسن بالسن الخ .

١٤ ـ الـــــزنا

يقام الحد على الزانى غير المتزوج بالجلد وعلى المحصــــــن بالرجم .

١٥ ـ الســـــــرقة

يعاقب السارق بقطع اليد ولكن ورد فى السنة تطبيق هـــــذا الحد على السارق الذى يسرق فى ظروف توجب التشديد فى عقوبته وشهود الزور فى الدعاوى المدنية يشهر بهم بين أهل وطنهم حتى يلحق بهم عار زورهم . أما شهود الزور فى الجنايات فيستوجبون على أنفسهم عقوبة الجلد وقد يعاقبون بنفس العقوبة التى تترتب على شهادتهم لو نطق بها فى حق المتهم . وحد شارب الخمر الجلد وهذه العقوبة وان تكن مرعية قانونا فى القطر المصرى لا يتـــأتى تطبيقهـــا الا فى النادر لندرة من يعاقـــرون بنت الدنان فى القطـــر المصرى .

١٦ـ الـــــــردة

الارتداد عن الديانة الاسلامية جناية ليس بعـــدها جناية ولذا يعاقب مرتكبها بالقتل ما لم يحلف المرتد ثلاثا بأنه عاد الى حظيرة دينــــــه .

٣

نظـــــام القضــــــاء

القضاة ــ المحكمة ــ تنفيذ الاحكام ــ العقـــــود العامة ــ المصاريف القضائية ــ القانون العسكرى ــ السلطة الاستبدادية التى بيد الباشوات ــ العقوبات ــ القضاء عند الافرنج .

١٧ ــ القضـــــــــاة

السلطة القضائية مستمدة فى مصر من ولى الامر وحده . فهو الذى يرجع اليه اختيار كبار القضاة وتعيينهم وهؤلاء يباشرون تعيين من دونهم ممن يتولون مناصب القضاء فى أرجاء القطر . وبناء على هذه القاعدة فان السلطان الذى هو ولى الامر يرسل الى مصـــر فى كل عام قاضيا كبيرا تمتد سلطته القضائية بحيث تتناول هـــذا القطر كله وتشمل رياسته المشائخ والمدنيين والنواب وبالجملـــة أصحاب المناصب القضائية على اختلافهم .

وتتطلب الشريعة الاسلامية ممن يتولى القضاء صفتين أساسيتين الفضيلة والعلم وليس لعالم أن يرفض منصب القضاء اذا عرض عليه والقضاة قابلون للعزل من مناصبهم .

١٨ — المحكمـــــة

المحكمة هى التى تنظر فيها القضايا بين الخصوم وتصـــــدر الاحكام ولكل محكمة كاتب أو كتاب يسجلون المرافعـــات . وليس للخصـــــــوم فى بلاد الدولة وكلاء يدافعون عنهم أمام المحـــاكم بل كل خصم يدافع عن نفسه بنصوص الشريعة . والمقرر بوجه عام أن شهادة الشاهدين تقوم مقام الدليل الكامل فى جميع القضايا الا قضايا الزنا فانه من المحتم لصدور الاحكام فيها من شهادة اربعة شهود تتفق شهادتهم اتفاقا تاما ولا تختلف فى شيء ، ومن اعتراف الرجل والمرأة به مكررا أربع مرات فقط والا فلا دليل على وقوعه .

ولا تنهض شهادة الشاهد الواحد فى أية قضيـــة دليلا عـــلى اثبات أو نفى ولا تقبل شهادة النساء الا فى القضـــــايا المدنية والاحكام التى تصدر فيها . ولذا نادرا ما تستأنف لا سيما وانهـــا اذا استؤنفت لا تلقى الا تأييدا . وكل ما هنالك أن الاعـــوان الموكلين بالتنفيذ اما يوقفون تأثيرها أو يعدلونه . والتنفيذ يتم فى العادة فورا . وفى المسلمين نزعة الى احترام أحكام الشريعـــة الاسلاميـــة ولو داخلها بعض الخطأ أو كانت مبنيـــة على شهادة شـــهود الزور .

١٩ — تنفيذ القوانين

فى كتب القضاء الاسلامى وفيما تقرر بالقياس أحكام صالحة ونصوص حسنة جـــدا . ولكن ينبغى لكى تأتى بالفوائد والمزايـــا المقصودة منها أن لا تصدر قوانين مناقضة لها فتـــذهب بأثرها النافع وأن يحرص الحرص كله على تنفيذها . وهنا لا أتمالك من الجهر بسوء حالة القضاء فى البلاد العثمانية فأقول انها فيهـــا أسوأ منها فى كل بلد سواها ولا سيما من جهة الحقوق المدنيـــة المعرضة الى أفظع ما يكون من صنوف العبث والاغتيال .

فان القضاة يحورون من أحكامهم بحسب ما يرونه من مكانة المتقاضين محاباة لهم أو بحسب ما يدلى هؤلاء اليهم به من المــال فانهم فى بعض الاحيان يبيعون أحكامهم بيعا لصالح من يتفــوق على خصمه فى المزايدة . ومن الفاضح بعد هـــذا وذاك تواتر شهادات الزور . فقد سبق أن قلنا ان شهادة شاهدين تقــوم شرعا مقام الدليل فليس أسهل على المدعى عليه او المتهم من العثور على شاهدين يبيعان ذمتهما بالمــال .

وقبل أن تسند الولاية الى محمد على كان القضاء فى أشـــد من هذه الحالة اختلالا وظلمــــا اذ كان يقوم مقامه استـــبداد الباشوات والبكوات وصغار الرؤساء وغيرهم ممن يفتاتون عــلى حقوق القضاء وضماناته لسد تهمتهم وقضاء أوطارهم .

٢٠ — العقود العمومية

أعمال المأذونين فى العقود من اختصاص القضاة بمصرفالقاضى هو الذى يتولى تحرير عقود بيع العقارات بين أفراد المــلاك فى مقابل رسم يتقاضاه لا يزيد على ٢ فى المــائة . وهذه العقــود ويسميها المصريون « الحجج » ، مشمولة بختم القاضى وأصــولها تبقى محفوظة ضمن أوراق المحكمة فى خزانة دفاترها .

٢١ — المصـــاريف القضائية

لا يتجاوز المصاريف القضائيـــة بمصر اربعـــة فى المائـــة لان اجراءات القضاء بسيطة فى ذاتها ولا التباك فيها ، فضلا عن انها تنجز بسرعة . والمحكوم عليه فى القضية اى الخصم الخاسر هــو الملزم بدفعها فورا بالجلسة . ومفهوم أن ما يستفيده القضاة عادة من التصرف فى القضايا بحسب أهوائهم ومصالحهم كثيرا ما يبلغ مبلغا جسيما .

٢٢ ــ القانون العسكرى

لم يكن باستطاعة محمد على ادخال شيء من الاصلاح على حالة القضاء فى الشئون المدنية نظرا لارتباطها الارتباط الوثيق بالدين . وكان بلا ريب يعلم ما يعتور هذه الحالة من الخلل والنقص فترك حبلها على غاربها وتحامى التصدى لها خيفة الاعتراض والتهمة بالجنوح الى المساس بالدين . ولكنه لما أتم تنظيم الجيش المصرى لم يتوان فى اتخاذ القانون العسكرى الفرنسى قانونا له وزاد على ذلك أن انشأ مجلسا مختلطا للتجارة دخل فى عضويته نواب عن الجاليات الاوربية .

٢٣ ــ سلطة الباشوات الاستبدادية

من المسلم به أن سمو الوالى اضطر فى ظروف خطيرة وأحوال ذات بال ولا سيما فى ابان ولايته حينما كانت سلطته غير راسية القواعد ولا وطيدة الاركان الى تنفيذ الاعدام ، بلا مداعاة ولا مقاضاة ، فى بعض دعاة الفتنة من الالبانيين أو غيرهم . ومما لا ريب فيه أن رمى عنق رجل واحد كثيرا ما يؤدى الى انقاذ انوف من الارواح . ولست أتطلع بهذا القول الى تحبيذ الاسلوب الذى يجعل حياة أحد الافراد تحت رحمة أمير أو قيد ارادة زعيم . كلا بل أقدر مزايا الاجراءات القضائية الممهدة للاحكام عند الامم المتمدينة وما توليه من الحماية والضمانة للهيئة الاجتماعية . ولكن اذا كانت الامة أمة خيم عليها الجهل ورانت عليها الهمجية فلن يؤثر فيها من أساليب المعاملات الا التشديد النكاية المكفول النتيجة المقصودة من الشدة والعسف . وفى مثل هذه الحالة لا جناح على الحاكم ما دام الغرض الذى يسمو اليه تأييد قضية الحضارة ورفع شأنها .

ولقد جربنا فى بلاد الجزائر ما أيد يقيننا فى عدم الفائدة من المحاسنة والسير بمقتضى القانون ودفعنا الى الاعتقاد بأنه لا غالب على امر سكانها من القبائل المتوحشة المتعصبة سوى اقامة حكومة عسكرية ومجالس حربية بينهم . أما وسائل الرفق والحسنى التى يدعو اليها حب الانسانية نحو اناس يجهلون الاماكن والاشياء والاشخاص فمن شأنها أن تؤدى الى اراقة الدماء واستنزال الكوارث وليس كلاهما من الامثلة العليا التى ترنو اليها الانسانية

٢٤ — العقوبات

راينا حين الكلام على الحدود فى الشريعة الاسلامية ما هى اصناف العقوبات التى توقع فى القطر المصرى على المجرمين وقلنا انها تنحصر فى الجلد والقصاص . ونقول الآن ان النساء لا تطبق عليهن العقوبات التى تطبق على الرجال فهن لا يشنقن ولا ترمى أعناقهن بل يوضعن ، اذا صدرت الاحكام عليهن بالاعدام ، فى الاكياس ويلقين فى الماء ليغرقن . والشنق ورمى الاعناق والخوزقة عقوبات الجرائم الغليظة . وكان الباشوات والزعماء فى الزمن السابق بما عرف عنهم من القسوة والجور يتفننون فى استنباط وسائل للتعذيب هى افظع ما مر بخاطرى ومن ثم لا يسع أحد أن يتذكر ما ارتكبه أحمد باشا الجزار من الفظاعات حينما مثل بنحو الثلث من سكان عكا الا ويقشعر بدنه فزعا وجزعا .

٢٥ — القضاء عند الافرنج

مفهوم أن الاوربيين فى الشرق ليسوا خاضعين للقضاء العثمانى لان الامتيازات الاجنبية تجعلهم فى منجاة من هذا القضاء وتابعين لقضاء قناصلهم . وقد أصبح من اختصاص القنصليات الفرنسية

فى تلك البلاد بمقتضى أمر جديد النظر فى قضايا الفرنسيين . وحبذا هذه الطريقة لان اختصاص القناصل كان فى السابق مقتصرا على تحقيق القضية التى يتعلق النظر فيها بمحاكم فرنسا حيث يتعذر استدعاء الشهود . وهذه الحالة التى ما برحت مرعية بالنسبة للجاليات الاوربية الاخرى من شأنها ان تكفل للمجرم الفرار من العقوبة . وفى الواقع فانك لا تزال ترى فى الشرق مجرمين ارتكبوا القتل يطلق سراحهم بالنظر الى ما هنالك من تعذر محاكمتهم فى بلادهم .

البـــاب الســـادس

أخـــلاق المســـلمين وعاداتهم

١

الطبقـــات الاجتمـــاعية

اعتبارات عامة ــ الاتراك والعرب ــ الطبقات الاجتماعيــة عند المصريين ــ الطبقة الوسطى ــ العمال ــ الفلاحون .

١ ــ اعتبارات عامــة

من المقدور لمصر أن تحمل فى كل شان من شئونها طابعا خاصا بها لا يشبهها فيه شيء بالبلدان والاقطار الاخرى . مثال ذلك أن تكون الهيئة الاجتماعية فيها لم يتمش فى الطريق الذى تمشى فيــه هذا التكون بغيرهـــا من البلدان ولا سيمـــا الاوروبيــة فى الابحر والمدينة . فان الامم العربية تكونت على أثر تخلصها من الغارات والفتوحات ، فهى اذن ثمرة اندماج الاجناس الغالبــة بالاجناس المغلوبة على أمرها . وكانت تتكون من الفاتحين الغالبين فى مبدأ الامر طبقة ممتازة ثم قامت بينهم وبين عامة الشعب طبقة وســطى أخذ نفوذها يمتد شيئا فشيئا بما برعت فيه من العلوم والفنــون والصنائع وبذلته من الجهود التى لا تعرف الملل فى انجاز الاعمال

حتى اذا بلغت الى مستوى الطبقة الشريفة حصلت على المساواة بهـا فى الشئون المدنيـة أو هيأت بالاقل هذا الفتح الادبى المبين الذى يظهر أن سيكون من حظ الهيئات الاجتماعية الحديثة القيام بمثله فى جميع أنحاء العالم .

فأن الشعوب القاطنة فى وادى النيل لم ينقصهم الفاتحون اذ يظهر انهم مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم . ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضعة نير العبودية فى اعناق تلك الشعوب ثم جاء الفتح الفارسى وتلاه الفتح اليونانى الذى لم يلبث أن حل محله الفتح الرومانى فالفتح العربى فحكم المماليك والاتراك . فلم يطرأ فى خلال هذه الادوار ما يغير من شأن الامة المصرية لانها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نـير تسلطهم وتحكمهم فيها . ولم يرد فى أخبارها السابقة ما دل على انها كانت ذات أثر فى شئونها الخاصة ولا مداخلـة فى مصيرهـا

٢ ــ الاتراك والعـرب

بالرغم من أن مؤسس الدين الاسلامى لم يجعل بين المسلمين فروقا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض وأنه لا يوجد فى الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة ، فان فى مصر فريقـين يختلفان أحدهما عن الآخر بصرف النظر عما يربطهما من جامعـة الدين اختلافا حال دون اختلاطهما ببعضهما . أحدهما الفـريق الذى بيده السيطرة والحكم يتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم والتكريم ويستقل بفوائدهما ، والفريق الثانى هو المقضى عليـه الخضوع والخنوع للفريق الاول ويصيبه عار ذلك وما يعـرف عليه من الكلف الباهظة . ذلك الفريق هو العنصر التركى وهـذا هو العنصر المصرى العربى.

هذه الحالة القائمة فى مصر المشهودة من كل ذى عينــين انما هى نتيجة ماض موغل فى القدم الى مدى اربعين جيــــلا . فمن المتعذر ان تتغير فجأة بوقوع ثورة فجائية . لهذا كان من الواجب الاحتراز من القاء مسئولية بقائها واستمرارها على عواهن محمد على باشا اذ أن جميع العقلاء غير المتحيزين الى الغرض يقــرون بأن هذا الوالى قد بذل بالعكس كل ما فى وسعه لتغيير تلك الحالة او تعديلها طبقا لمقتضيات الظروف . فمحمد على هو العثمــانى الوحيد الذى عمل على رفع القومية العربية الى المســتوى الذى هى جديرة به ، فانه بدأ بنشر نعمة التعليم بين أفرادها وأرسل الى مدارس أوربا ، وعلى الخصوص فرنسا ، وجامعاتها طــلابا من العرب لدراسة علومنا والاطلاع على أفكارنا والانطباع بطابع مدنيتنا . ثم انه ، وهو أمر فى الغاية القصوى من الاهميــة ، ضرب الاتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بالجيوش المصرية العربية التى الفها من أبناء البلاد وذلك بالرغم من خضـــوعهم لهم مدة ثلاثة قرون

ومن عادة الفوز فى الحروب اكساب الفائز احترام الغــير واحلالــه شرائف الرتب . وأن أنس لا أنسى أن أقول أن المجــد الذى يظفر به المنتصر بحد السنان تاج يعلو مفرق الشعوب المنتصرة ويرفع مكانتها ويعلى شأنها . وعلى هذا الاعتبار فان الانتصارات الاربعة التى فاز بها محمد على ووثق بها اركان ملــكه لا بد أن سيكون لها أثر فعال فى اعادة القومية العربية الى سالف مجدها. يضاف الى هذا أن سموه عهد فى مختلف ادارات حــكومته الى المصريين الوطنيين عددا عظيما من الوظائف واختار من بينهم أغلب المأمير وجميع ضباط جيوشه الى درجة امير الآلاى .

٣ ــ الطبقات الاجتماعية عند المصريين

ينقسم العنصر المصرى الاصلى الى عدة طبقات . الاولى منها طبقة العلماء وهم يتوارثون تقاليدها وخططها عن الآباء والاجداد ويؤلفون بذلك الطبقة العليا من الامة . وكان لهم فى عهد سبق تأثير عظيم فى نفوس الامة وقيادة آرائها فكانوا هم الذين يحرضونها على الحركات السياسية والفتن ويصدونها عنها اذا أرادوا . غير ان الوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عاليه سافله اذ انتزع من أيديهم الاملاك الواسعة التى ابتزوها من الامة بطريق الاستفادة بما جاءت عليه من جهل وأوهام فاسدة . فأصبحوا لهذه الاسباب ولا شىء بيدهم من السلطة وقوة التأثير لا على الامة ولا على الحكومة التى يمكن ان يقال ان الممسك بأعنتها انما هو العنصر العثمانى .

أما الطبقة الثانية فتتألف من الملاك والتجار كبارا وصغارا وأفرادها قليلو العدد لانها لا تحتوى بوجه عام الا ذوى الثروات المتوسطة . غير أن الازمةالتى تجتازها مصر الآن قد رفعت على ما يظهر من شأنها اذ الى ذوى النفوذ والجاه من أفرادها عهدت مراكز القيادة الكبرى فى الحرس الوطنى وهو الحرس الذى انشأه محمد على فى مدائن الوجه البحرى .

أما الطبقة الثالثة فطبقة العمال والصناع وينقسم أربابها الى طوائف عديدة مختلفة تتولى بنفسها ادارة شؤونها فى الدائرة التى تتبعها . ولها أنظمة خاصة وعادات لا تتعداها ورؤساء أو مشائخ يقبضون على زمامها. ومما يدخل فى ادارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد جدا .

أما الطبقة الرابعة وهى تتألف من المزارعين الفلاحين فمنها

يتكون الشطر الاكبر من الامة وستتاح لنا فرصة الكلام عليها مرارا في هذا الصدد .

الاســـــرة الاســـــلامية

٢

السلطة الابوية — احترام الزوجة لرب الاسرة — احتـــــرام الابناء والدهم — السلطة بين الاخوة — احترام الصغار للكبـــــار والمرؤوس للرئيس .

٤ — يمكن القول بأن الاخلاق والعادات في الشرق لم يطـــرا عليهما تغيير أساسي ما . فان الصفة المميزة للحضارة الشرقيـــة ترجع الى أمرين : أحدهما احترام التقاليد ، والثاني اســـتقرار الافكار والعقائد الدينية والعادات . ولهذا كانت الحضارة الشرقية مخالفة لحضارتنـــا التي يميزها عنها النشاط والحركـــة والعمل المتواصل والتخلص من استبداد القوانين القديمة والعادات التي اكل الدهر عليها وشرب والوقوف في المدارس على حركة التقـــدم الحديث وعدم الثقة الا بالحاضر وعدم الانصراف الا الى شيء واحد الا هو المستقبل .

٥ — الســـــلطة الابوية

من الاسرة الشرقية يتضوع شذا التقاليد القديمة الذي يحبب الينا الى الدرجة القصوى للبحث في شؤونها . فان الاســـــرة الاسلامية قد حفظت كيانها المبني على السلطة الابوية . وغـــير خاف ان مؤسس الديانة الاسلامية ولد في قوم يفتخرون بأنهم مـــن سلالة ابراهيم عليه السلام وعاشوا ولا يزالون عائشين برمتهم

تقريبا على البداوة الاولى فكان بدهيا أن يخص الاسرة بشطر واف من الانظمة الدينية خصوصا وأن مهمة الاسرة عند الشعوب المتبدية على جانب عظيم من الخطورة والاهمية . ومن ثم كان للسلطة الابوية فى الشرق جزء من النفوذ العظيم الذى كان لها فى عهد قيامها بين قبائل العرب وشعوبها .

وعلى هذا الاعتبار فالاب هو الرئيس الاعلى للاسرة وله بهذا الوصف السلطة المطلقة على زوجته واولاده وأقاربه اناثا وذكرانا . وكل هؤلاء مطالبون بالاحترام الجم له والطاعة لاوامره وحياطته بصنوف العناية والرعاية . وهذه السلطة الوالدية التى تخضع لها الاسرة برمتها شائعة فى سائر الطبقات الاجتماعية للامةوشأنها فى أسر الامراء ومن ثم أنها فى أسر المستضعفين والفقراء .

٦ — احترام الزوجة لرب الاسرة

تعنى المرأة فى علاقاتها مع زوجها باظهار الاحترام الكلى له . فليس لها أن تظهر نحوه بما هو مألوف فى الغرب من عدم الكلفة أى الاشارة الوحيدة للتساوى بين الزوجين . فانها فى غالب الاحوال تقف أمام زوجها لتتلقى أوامره وتدعوه اذا دعته بياسيدى . ولها من العناية بشؤونه والمداراة له مالا يصح أن يطلب من الخادم فضلا عن الزوجة . ومع هذا فان قيامها بهذه الواجبات ليس مما يشق عليها لاعتيادها فناء ذاتها فى ذات زوجها فلا يكون همها فى الحياة الا اتخاذ الوسائل لنيل رضائه عنها والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له .

وهذه الصفات المبنية على التواضع والاخلاص هى التى رأينا نساء العصور السالفة مقيمات عليها كما يؤخذ من الحكايات الواردة فى التوراة .

٧ ـ احترام الابناء لآبائهم

مفروض على الابناء توقير آبائهم والطاعة لهم . لهذا تراهم يلثمون يمينهم ويؤدون اليهم من علامات الاحترام والخضوع مايدل على برهم بهم ، ولا يجلسون فى حضرتهم الا اذا اذنوا بالجلوس لهم ولا يتكلمون الا جوابا على سؤال ويمسكون عن التدخين وشـرب القهوة فى حضرتهم (١) ولا تظهر على علاقتهم بهم مسحة من الحرية وارتفاع الكلفة الا بعد زواجهم وكما يحترمون الآباء تراهم يوقرون الامهات ويتحينون الفرص لاظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم .

٨ ـ السلطة التى لاكبر الابناء على اخوته

الروابط بين الابناء يسوسها مبدأ رئاسة الكبير منهم علـى الصغير فالاصغر سنا مطالب بالطاعة والاحترام للاكبر سـنا وللبكر حق الرئاسة فى الاسرة بعد الاب لان هذا الحق يؤول اليه طبعا عقب وفاة رب الاسرة . وافراد الاسرة جميعا يحتـرمون ما بينهم من اواصر القرابة ويقدسونها الى حد اعتبارهم اليمين التى يقسمونها بحياة جد او جدة أو أب أو أم الخ مما يجب عدم الحنث فيه واذا لم يكن أحد هؤلاء على قيد الحياة فانهم يحلفـون بقبره .

مرتبة منه بمقتضى نظام الدرجات اذ كان بصفته واليا على مكة اول ولاة الـدولة العثمانية واشرفهم رتبة وأعلاهم مقاما وكان فوق هذا وذاك قائدا مكللا باكاليـل النذر العسكرى والفوز فى الحروب ومع هذا فكان فى حضرة والده يظهر نحوه من علائم الطاعة والاحترام ما تقتضى الآداب الاسلامية به على الصغير نحو الكبيـر والمرؤوس نحو الرئيس .

٩ ـ احترام الصغير الكبير والرئيس للمرؤوس

ان مـــا ذكرناه من الاخلاق البيتية أثر تأثيرا كبيرا فى الهيئة الاجتماعية الاسلاميـــة اذ جعل احترام الكبار ضربة لازب عـــلى الصغار حتى اصبح هؤلاء لا يفرقون فى الاحترام بينهم وآبائهـــم وهم اذا خاطبوهم فى أمر او حدثوا عنهم اطلقوا عليهم وصف الوالد او الشيخ . ولم تكن الفروق فى السنين وحدها من بواعث التأثير فى الروابط الاجتماعية فأن للفروق فى الرتب والتفاوت فى الدرجات تأثيرا مثله ، فمظهر طاعة الطبقات الدنيا صيغ أدبية خاصة ينمقون بها عباراتهم .

ومن هذا القبيل انه اذا مر احد من الاعيان او ذوى الحيثيات بهم القوا من أيديهم الادوات التي يدخنون بها او انقطعـــوا عن أعمالهم ثم وقفوا ينتظرون باحترام أن يلقى المار الكريم العظيـــم عليهم تحيته . واذا وجه مرؤوس خطابا الى رئيسه دعاه بالاستاذ أو السيد أو الوالد . أما اما اذا وجهـــه الى نظيره سمـــاه بالاخ وهكذا بحيث يخيل لمن يشهد هذه المناظر او يسمع هذه الاقوال أن المجتمع الاسلامى أسرة واحدة تربط أعضاءها جميعا قرابة عامـــة ضمن أسلوب يقتضى طاعة الاصغر للاكبر فى ظلال السلطة الابوية الشاملة .

٣

الرق فى الشرق

الرق فى الغرب ــ الرق فى الشرق ــ الرقيـــق الابيض ــ الرقيق الاســـود ــ حالة الارقاء ــ الارقاء من النساء ــ ديانـــة الارقاء ــ سلوك الاوروبيين نحو أقرانهم فى مصر ــ أقوال مقتبسة من الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بالرقيق والنخاسة وعتق الارقاء.

١٠ — الرق فى الغرب

ان سمو الاخلاق وارتقاء الآداب بفضل انتشار الديانة المسيحية أديا الى استهجان مبدأ الرق وتحقيره فى ذاته واعتباره جريمة ضد الجنس البشرى كله . وقد جعلت الفظائع التى ارتكبت سواء فى العصور القديمة أو الحديثة ضد التعساء الذين ساقهم الشقاء الى السقوط فى هذه الهاوية اسم الرق ممقوتا ومبغضا عند الناس أجمعين . لذا سيكون من أكبر بواعث الفخار لهذا الجيل ان يقضى على تلك التجارة الشنعاء التى كانت ولاتزال تملأ أسواق النخاسين فى المستعمرات الاوروبية وأن يحرر أولئك الافريقيون الذين نقلوا الى أمريكا ليذوقوا بها عذاب الاسترقاق فى أحوال ينفطر لها القلب وتنهمر بسببها دموع ذوى الرفق بالانسانية .

الرق فى الشرق

ان حب الكسب الذى أوجد من العدم أسواقا للنخاسة فى المستعمرات وجعل هذه التجارة رائجة فيها أفضى بها الى حالة من الاحوال التى تتقزز النفس عند ذكرها وتنبو الابصار عن مشاهدتها الى حد أننى لا أود استعمال لفظة الاسترقاق للدلالة على الاستعباد الواقع فى بلاد الشرق من بعض الناس على اخوانهم فى الانسانية فأن هناك فى الحقيقة فرقا باليا بين الاستعباد الامريكى والاسترقاق الشرقى . فعند الشرقيين لم يكن الرق من الانظمة القاسية او الحاطة من قدر الانسان لانهم لايرون فى الرقيق متاعا أو شيئا ماديا كما كان الرومانيون فى قديم الزمان يرونه كذلك بحسب قوانينهم ، كما أنهم لا يتخذونه صنفا من الاصناف التى يجرى عليها التصدير والتوريد وتكون موضوعا للمضاربات فى طلب المزيد من الربح بالتصرف فيها بيعا وشراء ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الالآت بالاحصنة فأن المستعمر الغربى لا ينظر

الى العبد الاسود الا من جهة قيمته المادية ناسيا أنه انسان مثله ذو آداب وفضائل فيكون فعله هذا باعثا على تغيير ذاتيتـــه وتحويل طبيعته .

أما المسلم فأنه على العكس مما تقدم يرى فى رقيقه انسانا مثله لا يختلف عنه فى شيء ما فلذلك يعامله بحيث يخيل للواقف على طرائق هذه المعاملـــة ان الرق الشرقى لم يكن الا تبنيا صحيحـــا للرقيق وان هذا الاخير يندرج باسترقاقـــه فى سلك الاسرة التى اشترته بمالها .

١٢ ــ الرقيق الابيض

بمصر فريقان من الارقاء فريق أبيض والآخر اسود . امـــا الفريق الاول فهم الذين أسروا فى الحرب أو باعهم آباؤهم ببلاد الجركس . والموجودون منهم فى أسواق النخاسة قليلو العـــدد منذ اتسعت فتوحات الروسيا حتى تناولت تلك الاصقاع . وكأن الله سخر هذه الدولة لمعاقبة أقوام القوقاز الذين درجوا منذ زمان بعيد على توريد النساء الى دور الاغنياء فى الشرق بالرغـــم من الشرائع السماوية والوضعية المحتم اتباعها . وفى مصر بعض أرقاء من اليونان أخذوا أثناء حرب استقلال البلاد اليونانية .

١٣ ــ الرقيق الاسود

أما الارقاء السودانيون والحبشـــان فكثيرو العدد جدا وهـــم عبارة عن الاسرى الذين أسرهم أقوام أفريقية الداخلية وشعوبها أثناء الحروب التى يشب بينهم ضرامها . ولم يقل أحد ان هؤلاء الارقاء باعهم أهلوهم للنخاسين . وهو ما يؤخذ منه ان الشعور بمقتضيات النواميس الطبيعية أعلق بأفئدة أولئك المتوحشين منه

بأفئدة الجراكسة الذين حاول بعض المتأخرين من الكتاب تصويرهم في صورة يفهم منها أنهم سلالة من الابطال على جانب عظيم من العزة والشرف وكرامة النفس .

١٤ ــ حالة الارقاء

ليست حالة هؤلاء الارقاء فى شيء من الرداءة كما يتبادر الى الخاطر أول وهلة . اذ كثيرا ما تكون هذه الحالة سببا فى ارتقائهم الى مستوى لم يكونوا ببالغيه لو جمدوا على حالتهم الاولى . فأن الارقاء البيض يستطيعون الصعود الى أعلى المراتب فى الهيئة الاجتماعية والحلول فى الوظائف الكبيرة والمراكز السامية ومع أن الارقاء السود قضى عليهم لونهم الاسود بمزاولة الاعمال الدنيئة (١) فانهم يحظون من الهناء والسعادة والنعيم بما لم يخطر ببالهم أن يتوقعوا الحظوة به لو بقوا على فطرتهم الاولى وهناك أمثال كثيرة يفهم منها أن كثيرين من السودانيين نالوا شرائف الرتب وبلغوا الى أرفع المناصب وتحلوا برتبة البيكوية . فما الاسترقاق بالنسبة اليهم فى الحقيقة الا حياة جديدة كتبت لهم فى لوح القدر ونجاة لهم من الموت . ذلك لانهم بعد أسرهم يذبحون بلا رحمة بأيدى المتغلبين عليهم اذا لم يتقدم النخاسون لشرائهم بالمال .

قلنا فيما تقدم ان الاسترقاق فى الشرق سلم للتبنى والاندراج فى سلك أعضاء الاسرة . فأن المسلم الذى يشترى رقيقا فى سن الطفولة يأخذه من سوق النخاسين عاريا من الثياب قذرا محروما

---

(١) يتمتع الخصيان عندهم باحترام عظيم حتى شوهد منهم من بلغ الى مرتبة الوزاره وليس فى وسع أحد ان يهنىء هؤلاء التعساء بحظ يرجع الى ما تكبدوه من الشقاء الذى وصفهم بذلك الوصف ، كما لايسع أحدا ان يرضى عن الذين خولوهم تلك المراتب السامية لتوافر هذه الصفة فيهم .

من وسائل العناية اللازمة للاطفال فهو بشرائـــه اياه يلتقط طفلا مهجورا ليقوم على تربيته اوجه الله وطلب مثوبته . ولا يقتصر على السلطة المادية التى يخوله اياها حق ملكيته ذلك الرقيق الصغير ، بل يؤيد هذا الحق بما يتخذه حياله من وسائل العناية بأمره والسهر على تربيته اذ يبدأ بتعليمه فروض الدين وايقافه على قواعد القراءة والكتابة حتى اذا شب وترعرع وكل به امر تعمير شبكه أو تهيئة قهوته أو تجهيز فرشه أى جعله اما شبكجيا أو قهوجيا أو فراشا . فاذا كان مالك الرقيق سريا غنيا اتخذه خزندارا لـــه أو كاتبا أو سلحدارا او كيخيا (قيما على شؤونه) وربما زوجه بعد ذلك من احدى جواريه غالبا ومن ابنته احيانا .

وعلى هذا المثال ترى ان الاسترقاق الشرقى يتحول فى ظل هذه الاخلاق الابوية التى امتاز بها الشرقيون الى صفة مغايرة لما حولناه اليه فى الديار الامريكية . دع أن فى الشريعة الاسلاميـــة نصوصا تقضى بحماية الرقيق من جور مولاه وتكفل له الاعتصام من قسوته وعسفـــه وتظلـــه بجناح الحماية والرعاية الواجبتين على المؤمنين للضعفاء . ولم يكن اختلاف المعاملة هـــو مـــا استوجب دهشتى ، فأن الاسترقاق الشرقى يباين الاسترقاق عندنا مباينة تشرف الاول وتفضلـــه على الثانى لاسيما وأنه يحترم الكرامـــة الانسانية ويؤيدها .

فالرقيق فى البلاد الاسلامية لايرى فى مركزه الاجتماعى مـــا يغض من كرامته ويحط من منزلته بل أنه غالبا ما يفتخر بانتمائه الى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق عادة على سيده لقب الوالد ويعلم علم اليقين أنـــه لن يبقى الى الابد راسفا فى اغلال حالته الرقية لانه يرى أمامه من الامثال ما يحرك فى نفسه ساكن الطمع ويصرف أمله الى الغايات البعيدة والمقاصد العالية . وحسبنا دليلا على ذلك جماعة المماليك الذين وضعوا أيديهم قرونا عدة على

زمام الحكم فى مصر فانهم لم يكونوا سوى ارقاء اشتروا بالمال لافرق بين السيد والمسود منهم فعلى بك ومراد بك وابراهيم بك كانوا أرقاء حصلت عليهم المساومة فى اسواق النخاسة وهذا الصدر الاعظم الحالى للدولة العثمانية الشيخ الفانى خسرو باشا لم يرق الى منصبه السامى الا بعد أن بذل فى أسواق النخاسة واشترى بالمال . وكذا كان خليل باشا وسعيد باشا واحدهما صهر السلطان محمود والآخر زوج اخت السلطان عبد المجيد ووزير فى الباب العالى فأنهما من الرقيق وصل بهما الجد الى تلك الرتب الشريفة والمساند الرفيعة . والتقط السلطان محمود من شوارع الاستانة حافظ الجركسى واتخذه سر عسكرا لجيشه الاخير .

أما فى مصر فالسواد الاعظم من كبار الضباط فى الجيش ارقاء فكت رقابهم . وقد رأيت بعينى رأسى فى أسواق الجلابة بالقاهرة أرقاء من اليونان انتزعوا من وطنهم فى الوقت الذى كان هذا لوطن فيه على وشك الفوز باستقلاله ثم رأيتهم بعد ذلك وقد احتلوا المناصب السامية فى النظامين الملكى والعسكرى . وهو ما يحملنا على الاعتقاد بان أسرهم ، بصرف النظر عما سببه من الالآم لاهليهم وعما كان هؤلاء يتمنونه من مشاهدتهم راتعين معهم فى بحبوحة الاستقلال التام ومتقلبين على مهاد الحرية ، لم يكن مصابا حل بهم بل نعمة سابغة وخيرا جزيلا .

١٥ — الرقيق من النساء

النساء اللائى يسترققن ويدخلن فى حوزة من يشترونهن بالمال يتصلن بخدمة حرمهم وربما اتخذوهن زوجات لهم أو زوجوهن من أبنائهم او ضباطهم او بعض المنتمين اليهم بعد تجهيزهم اياهن بما يلزمهن فى معيشتهن المقبلة من الامتعة والأثاث . وسلاطين آل عثمان لا يقترنون عادة الا بجوارى الرق وكذا الحال بالنسبة الى سمو والى مصر وأبنائه .

وكثيرا ما يشاهد فى البيت الواحد الجوارى السود والجوارى البيض ويتزوج مولاهن بجارية جركسية منهن وأخرى حبشيـــة وثالثة سودانية من بنات دارفور . ويرى فى هذه الحالة صارفا كل همته الى العناية بهن وابنائهن على وتيرة واحدة ونمط لايتغير محافظا على العدل بينهن ويندر ان يتخذ الابيض جارية ســـوداء زوجـــة لــــه او ان تتزوج البيضاء من عبد أسود فى الاسر الكبيرة والبيوتات الشأن .

١٦ ــ ديانة الارقاء

من مستتبعات الاسترقاق فى الشرق ونتائجه تحويل عقيـــدة الارقاء ذكورا وأناثا الى العقيدة الاسلامية ولعل فى شغف المسلمين وسعيهم المتواصل لتحويل الناس جميعا الى عقيدتهم الدينية ما يعلل عدم اجازتهم للمسيحيين اتخاذ الرقيق أناثا وذكورا . واهتمامهم بأمر دينهم على هذا المثال خليق بالاعجاب من حيث دلالته على أن الشرقيين يرون فى اقاربهم اهلا لمشاطرتهم السعادة المقبلة التى وعد بها المؤمنون فى القرآن ويعترفون صراحة بالمساواة بين الناس جميعا أمام الخالق مساواة تسرى بالطبع عليهـــم فى سائر شئون الحياة ومرافقهـــا . وبالرغـــم من ذلك فأن المسيحيين يتمتعـــون فى مصر بأوسع واعظم مما يتمتع به أمثالهم فى بقية بلاد المملكـــة العثمانية فقد منحوا الحرية فى شراء الارقاء من العبيد والجوارى وبيعهم . وتوسع بعضهم فى الانتفاع بهذا الاذن فتمكنوا مع الاحتياط والحذر . من ادخال الجوارى الجركسيات فى حرمهـــم .

١٧ ــ معاملة الاوربيين للارقاء فى مصر

اجيز للاوربيين بفضل ما أظهره محمد على من التسامـــح والتساهل فى معاملتهم اقتناء الارقاء كغيرهم . واول مـــا يقع فى

الخاطر عند سماع هذا القول أن الارقاء اذا صاروا الى حــوزة الاوربيين ، اى الى قوم تنكر حكومات بلادهم الاسترقاق وتعمل على محو أثره وتقول بأكرام النزيل ومنح الحرية لمن يسألها . أصبحوا فى ليان من العيش ورفاهة . وهو خطأ بين ووهم فاسد يســوق اليهما حسن الظن . فأن أولئك الاوربيين الذين كلما عن لهم الكلام على المسلمين يلصقون بهم عار التوحش والهجمية ويقرنون القول فى حقهم بعلامات الازدراء والتحقير نادرا ما يوفقون بين معاملتهم الشائنة لارقائهم وما يتبجحون به من الكلام الفارغ فى عطفهــم على الانسـانية .

فأن الكثيرين منهم اذا اقتنوا الرقيق سرعان ما يهمون ببيعه التماس الربح أو المقايضة عليه بغيره او ببضاعة ولقد يكون لمثل هذا التصرف مـــا يسوغه فى حـــدود معينة واحوال خاصة وانما على شريطـــة أن لا يكوـــن القصد من البيع والمقايضة طمعا فى ربح . وانه لمن غلاظ الكبد والتناهى فى جفاء الطبع فك رقبة الرقيق الصغير السن مع العلم بعجزه ، اذا ترك وشانه ، عن كسب ما يسد به الخلة من عرق جبينه . فعتقه وتلك حالته من القصور عن مداركه حاجه لمحض الرغبة فى الخلاص منه قسوة لا مبررلها وجريمة فى حق الانسانية لا تغتفر بل هبوط الى درك الوالد الذى يطرد ولده من بيته من غير ما جرم أتاه .

أما بيع الرقيق القدير على كسب حياته بالكد فتجارة مزرية بالشرف حاطة من الكرامة . فأذا قيل ان من الافرنج من يزاولون هذه التجارة فأنا نقول نعم وقد وصموا الانسانية بعار لا يمحى . ولسنا ندرى بأى حكم يقضى عليهم اذا أثبتنا هنا أن منهم من يبيعون جواريهم حاملات منهم فكأنهم بهذه الفعلة الشنعاء يلقون ابناءهم بأيديهم فى وهدة الاسترقاق بدون أن يزعهم وازع الضمير او يردعهم رادع الترفق للانسانيـــة . وان اللسان ليعجز عن وصـــف هذه

النقائص الشائنة بل الآثام الفظيعة وان الافئدة لتمتلىء بالسخط والنقمة على مرتكبيها .

ولا شك فى أن الشرقيين اذا رأوا اولئك المتجرين بنسائهم وبما تحمله بطونهن من ابنائهم بعد أن عرفوا بعض الشيء من أمرهم ليحق لهم أن يشمخوا بأنوفهم ويفتخروا بهمجيتهم الفاضلة ويحتقروا مدنيتنا التى دنسها اولئك الاشقياء بما لايمحى على مر الاجيال من دناءاتهم .

وهــذه المخازى لا تنفى وجود لفيف من الاوربيين يعاملــون أرقاءهم عبيدا وجوارى بما تقتضيـــه المروءة من الرحمة والرفق ويعترفون بأبنائهم ممن ملكت أيمانهن من الجوارى ويترفعون عن ارتكاب المقابــح واحترام الآثار الغليظـــة التى لا تتفق وأخلاقنا وديانتنا ومبادئنا الاجتماعية التى تتنزه عن تلك النقائص كلها .

ويدفــع الطيش والنزق أحيانا بعض السياح الذين يزورون مصر الى ارتكاب ما لايقل عما ذكرته الآن من المخازى والمقابح فأن البعض منهم يزورون اسواق الجلابين لمجرد الاطلاع عــلى شيء سمعوا به ولم يروه كما هو شأنهم فى كل أمر مستغرب فأذا أعجبتهم سودانية أو حبشيـــة أو غيرها اشتروهـــا بقليل من المال ايضا ارضاء لشهواتهم وجريا وراء أهوائهم حتى اذا قضوا منهن وطرا وظنوا ان من آيات الاحسان نحو هاته الشقيات البائســات اللاتى اطفأوا فيهن جمرة شهواتهم الزائلة أطلقوا سراحهن بالاعناق ولكنهم نسوا أن تحرير الرقيق فى بلد لا تستطيع المرأة فيه أن تعيش الا فى ظل الرجل وبفضل قيامه بنفسه على شئونها يدفع بها الى أسوأ حالات الفقر والفاقة بل يلقى بها فى هاوية العهر والدعارة . فترى من ثم ان طيش بعض الرحالة الاوربيين ، وهو طيش مبنى عــلى حب الذات ، كان سببا فى نظر المسلمين الى أخلاقنا وعاداتنا بعين المقت والاحتقار .

وانى لالفت النظر الى ما ينجم من النتائج المحزنة عن مباشرة الغربيين للاسترقاق على الاسلوب الشرقى فانهم يضرون به الارقاء ويسيئون اليهم فى معيشتهم وأخلاقهم ومستقبلهم بينما المسلمون يعاملونهم بما ذكرناه من العطف واللطف والاحسان .

والواجب أن توسم النزعات المخجلة التى انحدر الاوربيون فى تيارها بين أمة لا نعرف شيئا من عاداتنا وأخلاقنا بميسم العار والخزى . والا اضطرت هذه الامة الى الوقوف فى موقف الاحتياط والتحفظ ازاء المدنية الغربية والاستمساك بالمدنية التى تفخر بالانتماء اليها ومواصلة العمل لاثبات سموها على مدنيتنا فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تكون لفظة الافرنجى محفوفة بمظاهر الكرامة والرفعة فى أعين المسلمين . ومن كبائر الاثم ان تستنزل على هذه اللفظة عبارات التحقير وأن تلوث بلوث الاهانةوالتصغير بسبب فعال تلك الطائفة الخرقاء .

وأختم هذا الفصل بفقرات مقتبسة من كتب الشريعة الاسلامية يجد القارىء فيها بيانات مهمة تكشف الستار عن وجهة النظر الشرعية فى الاسترقاق وانها الحرب . فاذا جاء الاسترقاق من غير طريقها كان ظلما وعدوانا وافتئاتا .

١٨ — مقتبسات فى الرق وتجارته والعتق

اذا أفضت الحرب الى وقوع بعض المشركين اسرى فى قبضة المسلمين فلأولى الامر الحق فى اتخاذ احدى الوسائل الاربع الآتية حيالهم :

أولا — يجوز له قطع رقابهم ما لم يكونوا نساء او اطفالا او مصابين بجنة الخ .

ثانيا — يجوز له العفو عنهم واطلاق سراحهم .

ثالثا — يجوز المبادلة على غيرهم من أسرى المسلمين لدى العدو او افتداؤهم بالمال .

رابعا — يجوز له استرقاقهم .

فاذا اختار ولى الامر وسيلة ما من هذه الوسائل الاربع فله ان يقوم على تنفيذها بشرط أن تكون أحسن الوسائل وأوفقها لمصلحة حكومته فاذا استقر رايه على الاسترقاق فقد وجب عليه أن يحسن معاملة أرقائه . فقد ورد فى كتب الشريعة ما مفاده أن جماعة من الاسرى من بينهم عباس قدموا يوم بدر الى النبى (صلى الله عليه وسلم) فأمر النبى بكسوته على الفور ووجدت بالاتفاق والمصادفة ثياب لعبد الله لم تكن له بها حاجة فأعطيت الى عباس فأخذها فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : رفقا بالضعيفين . أراد بهذا القول الاشارة الى المرأة والرقيق . وجاء فى الاحاديث الشريفة ايضا ما يستفاد منه أن النبى سئل يوم بدر فيما ينبغى أن يعامل به الاسرى فأجاب : ان الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم فسأل عمر بن الخطاب : « يا رسول الله أنضرب أعناقهم » . فالتفت النبى الى الحاضرين من المسلمين قال لهم مكررا : « ان الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم » فكرر عمر هذه الكلمات . فقام أبو بكر عندئذ وقال للنبى : يا رسول الله ان هؤلاء بنوا العم والعشيرة والاخوان وانى أرى أن تأخذ منهم الفدية ففرح النبى وأمر بقبول الفدية . وبهذه المناسبة نزلت على رسول الله الآية الآتية « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم » .

ولمـــا طلب الرسول من عباس مائة أوقية ذهبا فـــدية ولم يطلب من قريب آخر سوى أربع وعشرين أوقية صاح عباس بمـــا معناه : « ان هذه لاحدى آيات القرابة القريبة » فأنزل الله على النبى الآية الآتية : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاســـرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » .

ولمـــا كانت الحرية فى الانسان أصلا والاسترقاق عرضا فان حكم الديانة الاسلامية بتحرير الارقاء فضيلة تستوجب الحمـــد . وهناك صنوف من الذنوب والمخالفات لا يكفر عنها الا بفك الرقاب بها اليمين الكاذبة وفطر رمضان فقد قال الرسول : « من أعتـــق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار » — وقد أعتق النبى فى حياته ثلاثة وستين رقيقا أى بقدر ما عــــــاش من السنوات وأعتقت عائشة ابنة أبى بكر زوجه تسعة وستين رقيقا أى بقدر مـــا عاشت من السنوات وأعتق أحد صحابته وهو ذو القرى وأصله من قبيلة حمير ثمانية آلاف رقيق فى يوم واحد وأعتق عبد الله بن عمر ألف رقيق وحكيم بن جزان مائة كانوا يحماون فى رقابهم أطواقا من الفضة وعبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألفا وكانوا جميعا من أصحاب النبى .

والديانة الاسلامية تحبذ تحرير الرقاب وتحث عليه وتدعو اليه حتى أنها لتشترط على من يشترى رقيقا لكى يعتقه الوفاء بعهده بعد الشراء فاذا أبى الوفاء بعهده عومل بما يلزمه الـــــوفاء ولو بالاكراه البدنى ويجوز بل يجب على غير المؤمن أيضا اعتاق الرقيق ولو كان عدوا مبينا للمسلمين وسواء وقع الاعتاق من مسلم أو من غير مسلم فان المعتق يظل مقيمـــــا فى ولاية مولاه . وبين المولى والعبد رابطة وثيقة من القرابة تجعل أولهما الوصى الطبيعى على الثانى فى حالة عتقه كما يكون الوالد وصيا .

وهناك طرق متعددة للعتق يقضى احدها على المعتق ان يصرح كتابة فى حياته باعتاقه رقيقه بعد وفاته . واليك النص الذى ينبغى ان يكتب به هذا التعهد : « أنت حر لوجه الله بعـــد وفاتى » ويقضى الثانى أن يفتدى العبد حريته بمبلغ من المال يؤديه عـــلى دفعتين . وله ايضا بعد مساومته مولاه على هذا المبلغ أن يؤديه اليه أقساطا صغيرة فاذا برئت ذمته منه أصبح عتيقا طليقا .

والحالة الثانية من هاتين الحالتين لا تنطبق الا على الجوارى فى حالـــة حملهن . امـــا اذا لم يكن كذلك فليس لهن أن يحصلن على حريتهن الا بموت مالكهن .

٤

الرجـــــــال

انفصال الرجال عن النســـاء فى الهيئة الاجتماعية ــ الصفات الجثمانيـــة للرجال ــ الصفات النفسية والعقلية ــ القناعة ــ الصدقة ــ الشجاعة والتوكل ــ حب المصريين اوطانهم ــ العيوب والنقائص : الجشع ، الانكار ، الحسد ، نكران النعمة ــ الكسل ــ النزعة الدينية ــ الجهل ــ العناد والتشبث ــ الشجار والسباب ــ المجون والمباسطة ــ الملابس القديمة ــ ملابس المماليك ــ الملابس الحديثة ــ الحذاء ــ افكار فى الملابس الحديثة ــ ملابس الفلاحين ــ عـــادات المصريين فى تدبير الشعر واللحية الخ ــ النظافة والوساخة ــ استعمال الوقت والاشتغال ــ النوم وكيفية الرقاد ــ عبارات النداء والتعجب والتسم .

١٩ ــ فصل الرجال عن النساء

اقام الدين الاسلامى مع ما تواكب عليه من التقاليد الشرقية سدا منيعا فى الهيئة الاجتماعية بين الرجال والنســاء .فكان من نتائج هذا الافتراق ان صار لكل من فريقى الرجال والنساء فى مصـــر أخلاق وعادات خاصـة ومتباينة الى حد يستدعى بحثها واستقراؤها فى الرجال مستقلة عنها فى النساء والعكس بالعكس .

٢٠ — الصـفات الجثمانية

تنم سحنة العربى وهيئته عن كرم المحتد وصلابة القلب وجفاء الطبع وشدة الرصانة . والمصرى المسلم وان حمل الاطمار البالية تبدو متوافرة فى شخصته أمارات السمو ورفعة القدر . اذا وقف وقف مستقيما فى انحناء وبدا فى هيئة الجندى واذا ســار اتأد فى مشيته بلا تكلف كأنما يعد الخطوات ، واذا تحرك تحرك فى سكون ورباطة حتى لقد يخيل للناظر انه يضبط حركاته وسكناته ويدبرها. والحقيقة أنه لايرهق نفسه بعناء شىء من ذلك لانه يتحرك ويسكن من غير تصنع ولا تعمل . وما يبديه الاوربى من الهزيمة فى الحركة والاسترسال فى الفرع والتبسط فى المجانة قلما يخل بنظام مشــيته أو يستفزه الى السرعة فيها أو يهز وترا من أوتار نفسه . وهــو اذا نظر كان نظره حادا يدل على الجد وبدا وجهه من حوله معربا بملامحه عن البأس والهمة . وهو مطمئن النفس لا يزعزع سكونها شىء ولذا تراه أكظم ما يكون لمـا ينتابه من الانفعالات الباطنية ففيما وراء هذا الستار تعصف عواصف المؤثرات المختلفة بدون أن تحرك له ساكنا . واذا تكلم تحرى الاقتصاد فى كلامه والاقتصار منه على ما يؤدى مراده بالضبط من غير لجاجة وبدت كلماته كأنها لا تخرج من فيه الا وقد وزنت مرارا بمعيار الامعان والروية . ومن عادته اذا حدث أن يرفع صوته عاليا فيخيل لسامعه أنه وهــو يحدث قد ثارت بينه وبين محدثه ثائرة الجدل والخصومة .

٢١ — الفضائل النفســية والعقلية

المصريون أقوياء الحافظة أذكياء بالفطرة لا يجدون صـــعوبة فى الاستظهار ولا عناء فى الفهم ولكنهم ، أما لعدم المبالاة وأما لضعف فى الذاكرة ، لا يتذكــرون زمنــا طــويلا مــا أسرعوا فى حفظه أول وهلة . وهم على شىء كثير من سلاسة الطبع ، ودماثة الخلق.

وهذا ما مهد لهم مزاولة الاعمال بهمة ونباهة على شدة ما بينهما من التفاوت . ولسرعة انفعال نفوسهم بالمؤثرات تراهم على استعداد للتنافس والتبارى فى العمل فاذا استثيرت كوامن هذا الاستعداد ظهرت أهليتهم للقيام بجلائل الاعمال . ولا ننسى ما هم مفطورون عليه من الحذق فى الاعمال اليدوية وأنهم يبدون فى ادائها مهارة نادرة مقرونة بالاتقان والاجادة .

وللمصريين نزعة الى السرور واندفاع فطرى الى المزح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء وحضور الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لا يكادون يبلغون الى سن الرجولة حتى يميلوا عما مالوا اليه بالظهور فى مظاهر السمت والوقار وملازمة الجد فى القول والفعل . ويرجع هذا التحول بلا ريب الى تأثير المبادىء الدينية التى تتأصل فى نفوسهم كلما تقدموا فى العمر وازدادوا رزانة ورصانة .

٢٢ ــ القناعة

القناعة من خصال المصريين التى تستوجب العجب والدهش وان القارىء سيقتنع بهذه الحقيقة مما سأورده عن كيفية غذائهم . أما المسكرات فتعاطيها غير فاش بينهم وأما الطعام فيراعون فيه البساطة والتقشف والاقلال . ومن الخصال المحمودة التى درجوا عليها احترامهم الخبز وصونهم اياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة ، فهو فى نظرهم قوامها الذى لا تقوم لها بدونه قائمة . ولعل هذا ما حدا بهم الى تسميته بـ « العيش » الذى يفيد معنى الحياة فى اللغة العربية . ولشدة حرصهم عليه واحترامهم له يدأبون على وقايته مما يدعو الى تحقيره والحط من قدره فتراهم اذا عثروا فى الطريق على شىء من فتات العيش سارعوا الى التقاطه ولثموه ورفعوه اكبارا الى رؤوسهم ثم اختاروا لصيانته مكانا اذا اهتدت اليه الحيوانات استطاعت أن

تأكله بدلا من بقائه عرضة لدوس الارجل والتلطخ بالاقذار .

٢٣ ـ الصدقة أو الاحسان

المسلمون ميالون بوجه عام الى البر بالفقراء والاحسان عليهم لان فى دينهم من التعاليم والمبادىء ما يجعل هذه الفضيلة فرضا واجب الاتباع . وثمة سبب آخر يدعوهم الى البذل فى سبيل الصدقة وهو الرجاء فى الفوز بما أعد للمحسنين فى الآخرة من الثواب . وربما كان الباعث لهم على التصدق فى سبيل هذا المطلب أقوى منه فى سبيل العطف على المساكين والبر بالمعوزين .

أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعا فى القطر المصرى وهى حرية بالذكر والاطراء الآن فالمسافرون وعابرو السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين فى كل زمان ومكان صدرا رحيبا ومثوى كريما . ومن شيم المسلم أنه اذا جلس الى الطعام وزاره أحد دعاه الى طعامه واشركه فيه وسواد أفراد الطبقة الوسطى يتناولون طعام العشاء على أبواب منازلهم حتى اذا مر بهم أحد دعوه الى مشاركتهم فى طعمهم .

وهم حينما تلاقوا بدت على وجوههم أمارات البشاشة والهشاشة وتبادلوا عبارات الانس والمودة ثم لا يلبثون أن يحافظوا على السكون ويلزموا التحفظ اذا التقوا بالاوربيين أو تحدثوا معهم .

٢٤ ـ الشجاعة والتوكل

ولد قطان القطر المصرى تحت تأثير الضغط والعنف فتراهم فى الاحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للاخطار أو اقتحام غمارها ، ولكنهم اذا نزل بهم نازل أو تهددهم خطر لاتلبث الشهامة الكامنة فى نفوسهم أن تهب من سباتها فيدراون هذه

النازلة بشجاعة وهمة . وهم فى كل ما يحيق بهم من الاحـــزان والارزاء ينقون بالله ويتوكاون عليه اتكالا لا تزعزعه قوة بالغـة ما بلغت . والى هذه الثقة وهذا التوكل يرجع رضوخهم لمقتضيات الظروف ورضاؤهـم بما تجىء به الحوادث باعتبارها قضاء الهيا لا مرد له وقدرا ربانيا لا مفر منه . وهم يقابلون المحن والمصائب اذا نزلت بهم بعبارة تدل على ثباتهم ازاءها وصبرهم عليها وهى قولهم « الله كريم » .

٢٥ ــ حب المصريين اوطانهم

لا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد فى حب مسقط رأسه كالمصريين فان الفلاحين لا يجدون للحياة معنى ولا لذة اذا ابتعدوا عن النيل الذى يطفىء ماؤه أوار عطشهم ويروى أرضهم أو حرموا النخيل الذى يكفى أن يهزوا اليهم بجذعه ليساقط عليهم ثمره فلا يتكبدون فى اكله أقل كلفة . ومن ثم تسمعهـم اذا حدثوا أوربيا عن وطنه يسألونه عما اذا كان يجرى فى ارضه نيل كنيلهم أو ينبت فيها نخيل كنخيلهم يعطيهم ما يشتهون من غـذاء شهى ومرافق أخرى .

٢٦ ــ العيوب والنقائص : الجشع

يظهر أن أول ما يستشعر المصريون به من المؤثرات فى النفس عقب ميلادهم حب المـال . والغالب أنهم يجهلون معنى الشـرف والكرامة النفسية الى حد أنهم لا يربأون بأنفسهم اذا كانوا من اهل الطبقة الدنيا عن استجداء أهل الطبقات العليا بعض البارات عن طريق الايهام بأنهم من سوء الحال وضنك العيش فيما ليسـوا فى شىء منه . فاذا تلقى احدهم المال اما على سبيل الهـدية أو سدادا لدين لهم رفعوا يدهم اليمنى وحركوا السبابة منها قائلين

« كمان واحد » اشعارا بطلبهم المزيد مما أعطى اليهم . وهـذا الجشع الفريزى فى المصريين جعلهم لا يستحيون من الالتجاء الى الغش والتدليس فى معاملتهم التجارية وبث فيهم الميل الى الاحتيال والسرقة . ومن السهل تعليل هذه النزعة الدنيئة بأن المصريين رئموا للمذلـة وصنوف الاضطهاد عشرة قرون كان الحكام خلالها يعاملونهم بالشدة والصرامة ويسومونهم خطة خسف . ولمـا كان من المتعذر عليهم مع هذه المعاملة الجائرة أن يدراوا مطـامع أولئك الحكام عن أموالهم وان يكفوا عنها أيديهم ، وهى عندهم أعز عليهم وأكرم من نفوسهم ، فقد تعمدوا الظهـور فى سربال الفقر والعوز دفعا لمـا عساه أن يحيق بأموالهم من خطر السلب وان يزيدوا على ذلك سترها عن الانظار باخفائها فى مخـابىء بمنازلهم لا يعلم بمواقعها منها سواهم . وهم يضيفون اليهـا ما يملكونه من نفيس الاعلاق كالمصوغات والمجوهرات وما جرى مجـراها .

٢٧ ـ الانكار والحسد وكفران النعمة

الكذب والانكار والحسد ونكران الجميل وغيرها من النقائص الفاشية بين الذين القاهم الجور والاستعباد فى مهاوى الدناءة والخسة أخنت على كثير من الفضائل والخلال الشريفة التى اشتهرت عن المصريين . وعرفان الجميل محمدة تكاد تكون مجهولة عندهم فانهم يأتون من الفعال ما يدل غالبا على الكفران والحسـد والجـور الشـديد .

٢٨ ـ الكسـل

اذا ترك المصريون وشأنهم أخلدوا الى البطالة والكسل وترامو فى أحضان الدعة والخمول أى انه اذا لم تستفزهم الى العمـل

ارادة فعالة وهمة نشيطة ولم تدفعهم اليه يد قوية آثروا قضـــاء حياتهم فى البطالة التامة . ولعل الباعث لهم على ذلك قلة احتياجاتهم وقدرتهم على قضاء ما يستشعرون به منها وهم على مهاد الراحة . ومن مظاهر جمودهم على هذا السلوك الشائن أنهم قلما يفكرون فى المحافظة على خصوبة الارض التى يلتمسون منها غذاءهم بالعمل المتواصل فى فلاحتها واستخراج خيراتها . والحقيقـــة الثابتة أن دولة المصلحة لم تتغلب فى نفوسهم على ما ألفته من الاستنامة الى الكسل والسكون فتراهم لهذا السبب لا يهتمون من شئونهم الا بما يتعلق منها بحاضرهم غير ملتفتين الى مستقبلهم . وهم يشـــبهون لصوص نابلى لا يحركون ساكنا الا اذا عضهم الجوع بنـــابه . فالنظر الى المستقبل لا يمتد عندهم الى أبعد من الغد .

٢٩ ـ عزة الدين

من خصوصيات الديانة الاسلامية سلطانها الذى لا يغلب على نفوس المستمسكين بحبلها وهيمنتها عليهم فى أقوالهم وأفعـــالهم وتأثيرها فيهم تأثيرا لا يقوون على دفعه مهما أوتوا من صـــدق الارادة ولطف الحيلة . ترى أن الواحد لم يتلق شيئا من دروس الدين تلقيا خاصا ثم مـــع ذلك سرعان ما تدرك مبادئه الاساسية وتنطبع عقيدته بالطابع الذى يبغى اهله أن يبقى منقوشا فى صحيفتها فلا يجد الشك مسربا اليها .

وترى المسلم لرسوخ عقيدته ووطود دعائم ايمانه لا يلبث أن يصبح مختالا بها فخورا بسموها على بقية العقائد . وينتهى الامر به الى الاعتزاز بانتمائه الى ديانة يرى أنها تسمو على ســـائر الديانات وتفوقها فوقا عظيما فلا يسعه الا أن ينظر الى المتمسكين بغيرها بعين الاستخفاف والاحتقار .

٣٠ ــ الجهــــــل

السواد الاعظم من الامة المصرية هائم فى أودية الجهالة وقد حاول بعضهم اسناد جهلهم الى الديانة الاسلامية . وهو خطـــأ فاحش ومذهب باطل فان فى القرآن آيات كثيرة تدل على شـــرف العلم والحض على تحصيله . على أنه غنى عن البيان ما بلغت اليه العلوم والفنون من التقدم والارتقاء فى عهد الحضارة الاسلامية ببغداد والاندلس .

والسبب الحقيقى لانغماس المصريين فى حمأة الجهل أن المماليك أطفأوا فى مصر نور العلم وهاضوا ركنه ودكوا معالمه حتى صـــار لايوجد الآن من المتنورين والمتعلمين من غير الذين نشأوا فى المدارس الحديثة وتلقوا بها مختلف العلوم من يلم بالقراءة والكتابة سوى النذر اليسير ومعلوماتهم مقتصرة على دراسة العلوم الدينية وحفظ بعض القصائد الشعرية .

٣١ ــ التعنت وصلابة الرأى

التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين فانك ترى فيهم من يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة . ومن النادر أن تجد أحدهم مقبلا بخاطره على دفع المـــال الذى عليه فاذا دفع أحدهم بعد معاملته بهـــذه الاساءة التى يتحملونها بقدر ما تسمح لهم به قوتهم البدنية ما هو مطلوب منه أظهر الاسف لامر واحد وهو أنه لو استطاع بدنه أن يتحمل من الضرب فوق ما تحمله لتخلص من دفع المـــال الذى لاجله يلقى هذه الاهانة .

والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج لاكراه الممولين على اداء الاموال المستحقة لجانب الحكومة واقناعهم بالعدول عن الاصرار على عدم سدادها . ولقد كانت هذه حالهم على عهد (اميانوس مرسلانوس) فقد روى هذا المؤرخ أن المصريين يرون من بواعث الفخر والشرف أن لا يؤدوا ما عليهم من الضرائب الى الخزينة الا اذا ضربوا الضرب المبرح وعذبوا العذاب الاليم .

٣٢ ـ المنازعات والانتقام

يميل المصريون من أهل الطبقة السفلى الى المنازعات والمخاصمات التى يرجع سببها فى الغالب الى الاختلاف على مصلحة لا يبعد أن تكون تافهة غير جديرة بالاهتمام . والذى يرى المشاحنة وقد احتدمت نارها وتلظى سعيرها وتبودلت فيها الفاظ السب والشتم واستنزلت اللعنات وتراشق الفريقان بسهام المخازى والمعايره يتبادر الى ذهنه أن الشجار لسوف يفضى الى أوخم العواقب ولكنه لا يلبث أن يوقن أنها لم تؤد الى شيء مما يخشاه والسبب فى ذلك أنه قلما ينقلب الشجار بين المصريين من التنابذ بالقول الى التضارب بالايدى ، بل انه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل احد الخصمين عن حقه بقوله للاخر : « الحق على » .

ويتفق أحيانا أن يتداخل بين الخصمين ثالث ويجعل تمهيده للمقابلة قوله : « اللهم صلى على سيدنا محمد » فيكرر الخصمان هذه الجملة بصوت خافت ثم يقرآن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوئام والوداد .

أما الانتقام أو الاخذ بالثأر فغريزى فى نفوس المصريين . وبين بعض العائلات عندهم آثار قديمة يثأرون بها على تسلسل الاعقاب

وفيما سبق من الزمن كان الاخذ بالثأر بين قرى برمتها . وهو ما يصح القول معه أن الدم يجذب الدم ، فان أسرة القتيل يتحتم عليها الانتقام من أسرة القاتل ولكن القتل لحسن الحظ يكاد يكون مجهولا فى القطر المصرى .

٣٣ ـ الميل الى المجون والمطايبة

يميل المصريون بفطرتهم الى المجون والمطايبة وهم كثيرا ما يبنونهما على النكتة لا سيما وأن اللغة العربية التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكناية الى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس . وهم فى كل ذلك قلما يحرصون على الآداب أو يتصونون عن القبائح اذ يعبرون بفاحش القول عن الآراء التى يجفل من الانصات لها السمع الكريم . ونادرا ما تجد بين النساء حتى الفضليات منهن من يتحاشين تلويث كلامهن بالالفاظ القذرة ذات المعانى المعيبة .

٣٤ ـ الثيـــاب

الملابس القديمة ـ الملابس التى كان المصريون يكتسون بها قبل سنوات قليلة تتألف : أولا من القميص ، ثانيا من اللباس أى السروال ، وثالثا من الصدرية ، ورابعا من القفطان ، وخامسا من الحزام ، وسادسا من الجبة ، وسابعا من البنش .

ولم يكن للزى الحديث (المودة) تأثير ما على طريقة الاكتساء عند المصريين الذين لم يطرأ تغيير ما على نظام ملابسهم كلها او بعضها .

وتختلف الاقمصة الشرقية اختلافا بينا عن القمص عندنا فهى عندهم تمتاز بفرط الطول والعرض واتساع القن (الكم)واسترساله الى كاحل القدم . أما قمصان أفراد العامة فهى اما من الكتان او التيل بخلاف أقمصة أصحاب اليسر فانهم يلبسونها من قماش دقيق النسج يسمونه المغربى أو قماش الحرير والقميص لا يحشى به داخل السروال كما هو الحال عندنا بل يسبل فوقه .

ويمتاز السروال المصرى بالسعة حتى ليخيل لرائيه أنه جبة خيط الجزء الاسفل منها بحيث يترك فتحتين لخروج القدمين . وهو سابل الى الركبتين ويثبت حول الجسم بتكة تجرى فى باكية وغالبا ما تحلى التكة بالزركشة التى تتفاوت بتفاوت أصحابها فى اليسار أما لصديرى فيتخذ عادة من الجوخ أو القماش الحريرى أو القطنى . وفوق هذه الثياب كلها يفرغ القفطان وهو لباس سابل الى القدمين عريض الكمين .

أما الحزام فقطعة من قماش الحرير يبلغ عرضها مترا واحدا فى ثمانية أمتار الى عشرة طولا يلف حول الجسم عند الحرقفتين وأصحاب اليسار يتخذونه من الكشمير الثمين .

أما الجبة وتوضع فوق المجاسد السابقة كلها فتبطن بالفرو واذا كانت للبس الشتاء يكون كماها اقصر من كمى القفطان وتلبس فوقه مشقوقة من الامام .

ويحمل بعض الناس فيما عدا الجبة ثوبا أعرض منه يسمونه البنش وكماه واسعان جدا وطويلان ومشقوقان فى نهايتيهما ولا يلبس الا فى الحفلات ويختص رجال الشرع والعلماء بلبسه دون غيرهم من الناس .

ومع أن مصر من البلاد الحارة فان لبس الفرو شائع فيهــــا شيوعا عظيما . ولم يكن شيوعه للخيلاء فقط بل للحـــاجة الى الاكتساء بمعطف واسع عريض الاكمام ومبطن بالفرو . وسبب ذلك أن الطقس فى مصر ينتقل فجأة من درجة حرارة الى درجة مناقضة لها فيجعل الشعور بالبرد شديدا . وكرك السمور التركى عبـارة عن معطف من الحرير أو الجوخ لا يلبسه الا ذوو الحيثيات وأصحاب المقامات العالية ويكون محشوا بالسمور الخ . وهو معـــدود من شارات الشرف ورفعة القدر والعلماء لا يكتسون الا به واذا عـين أحد فى منصب خطير فان علامة التقليد له فى هذا المنصب الباسه كركا من السمور .

أما القلانس أى ما يلبس على الرأس فعبارة عن طربوش من الصوف المصبوغ باللون الاحمر تلف حوله العمـــامة . وتحت الطربوش يضع المصريون قلنسوة رفيعة يسمونها الطاقية الغرض منها وقاية الطربوش من تأثير العرق والعمامة شال من القمــاش الموصلى صوفا أو حريرا ساذجا أو مشغولا .

ولا يزال يوجد حتى الآن أناس يحافظون على الزى القـديم ولهم طرائق عديدة فى حمل القلنسوة وتنسيق أوضاعها فانهم يطوون الشال طيا ينطبق على اتجاه أحد قطريه ثم يلفونه بأسلوب معلوم حول الرأس مع جعل اللفات متشابكة بحيث يتكون منها فوق الجبهة ما يشبه خطين متقاطعين هكذا x وأحيانا يجعلون اللفات متراكبة بعضها فوق بعض بحيث يتألف منها ما يشبه الشكل الحلزونى وقد يكتفون بجعل الشال الى أحد جانبى الرأس دون الجانب الآخر . واختلاف هذه الازياء والانماط يدل على حالة صاحب القلنســوة ويشير الى مرتبة فى الهيئة الاجتماعية فاما أن يكون موظفا دينيا أو عسكريا أو ملكيا .

وهناك وسائل أخرى لتسوية العمامة تدل على حال لابسيها فهناك العمامة الخاصة بالعساكر والعمامة الخاصةبالتجار والعمامة الخاصةبالبحريين وغيرها كالتى على الطراز التركى أو الالبانى أو الارناؤوطى أو التى يلبسها القاضى وأختها التى يحملها المفتى الخ .

وكانت عمامات العلماء تمتاز بضخامة الحجم ويتكون منها حول رؤوسهم ما يشبه الكرة العظيمة . وكان بعضهم يحليها بوشاح من الكشمير أو الحرير الموصلى تهبط منه عذبتان احداهما تمس الصدر وتبقى معلقة أمامه من ناحية احدى الكتفين وتمس الثانية الكتف الاخرى وتحف الاثنتان بوجه العالم والشيخ فتعطيانه هيئة الجلال والوقار التى عرفت عن رجال الدين منذ قديم الزمان .

وكانت الوان العمائم فى الزمن الغابر تفيد فى التمييز بين طبقات الناس فكان المسلمون يتخذون العمائم البيضاء أو الحمراء والاشراف من آل البيت النبوى العمائم الخضراء . أما الرعايا من اليهود والمسيحيين فكان لا يباح لهم من العمائم الا أسود اللون أو أسمره أو بنفسجيه أو ما كان لونه أحمر غامقا .

ذاك كان نظام اللباس القديم وهو المسمى باللباس الطويل وقد اندثر اليوم زيه ولم يعد يحمله من طبقات الناس سوى العلماء والتجار وكتبة المصالح وبوجه خاص الوطنيون من النصارى واليهود .

٣٥ — لباس المماليك

لا يزال يحمل هذا اللباس بعض الذين بقوا على قيد الحياة من طائفة المماليك وهو يختلف يسيرا عن اللباس الذى وصفته

الآن فان قفطان المماليك بدلا من أن يكون مفرط الطول ينتهى عند الحزام فكأنه صدرية لا قفطان . وكان الواحد منهم يلبس قفطانين أحدهما ضيق الاكمام جدا ينتهى عند الكوع . وكانوا يلبسون فيما عدا ذلك سروالا من جوخ البندقية يحملونه فوق السروال الداخلى ويثبتونه عند الحزام بتكة وكان عظيم العرض سابلا الى سمانة الساق ويشبه غرارة كبيرة ذات ثقبين فى أسفلها وكان يشدون بعد ذلك حزاما على وسطهم من الكشمير .

٣٦ — اللباس الجديد

ان الانقلاب الذى طرأ على لباس المصريين يرجع تاريخه الى عهد تنظيم الجيوش النظامية فى سنة ١٨٢٣ وكان نتيجة لهذا التنظيم فكانت العمامة أول ما حذف فى الجيش من ملابس الجنود وفى سنة ١٨٢٦ أدخلت تعديلات أخرى اذ تركوا اللباس العريض الهابط الى الركبتين كما هو وأدخلوا صدرية ذات كمين توضع فوقها سلطة من نوع ما يلبسه عامة الشعب عدننا وانما تختلف عنها بالسعة وانفتاح الكمين وهبوطهما خلف الجسم . ولم يلبث المصلحون أن أدركوا مقدار ما تحدث هذه الاكمام من الالتباك أثناء القيام بالحركات العسكرية فقضوا بحذفها وحذفت فعلا .

ولما كان الجيش فى القطر المصرى الكل فى الكل الآن فقد كان من المنتظر أن يسرى تأثير التعديلات التى تطرأ عليه ولقد سرى هذا التأثير فعلا فتناول اللباس القديم الشائع الاستعمال اذ اخذ ذوو الحيثيات يجعلون ثيابهم على طراز الثياب العسكرية سواء أكانت لهم أم لم تكن مناصب فى قيادة الجيش وكان ابراهيم باشا فى مقدمة المقلدين فبدل العمامة بالطربوش فلم يلبث الناس جميعا ان قلدوه ولبس الوالى نفسه عين اللباس الذى اتخذه لجيوشه .

والشرقيون ميالون الى اتخاذ الثياب ذات الالوان الفاتحة الساطعة كالاحمر والوردى والابيض والبنفسجى الخ بقدر ميلهم عن الالوان الغامقة التى جعلوها ميزة الرعية من اليهود والنصارى ولكن الاذواق والعادات تغيرت الآن من هذه الجهة تغيرا محسوسا اذ هجر الالوان الساطعة افراد الطبقات العليا واعتادوا الآن لبس الثياب من الجوخ الاسود والازرق والكستنى الخ وظل عامة الشعب محتفظين بالالوان الاولى .

وفى ظنى أن القلنسوة الحالية وهى الطربوش بغير عمامة اصلح بكثير منه بها بل واظرف شكلا . وارى أن من غير المستطاع ادخال تغيير عليها فى زمن قريب . ولست أدرى بم يمكن تغييرها لو رغب فى هذا التغيير . فأن القبعة الاوربية ليست فى شكلها أظرف ولا اشرف من الطربوش حتى يمكن القول بالاستعاضة عنه بها . ثم أن المسلمين يمقتون القبعة الى حد انهم اذا أرادوا فى ثورة غضبهم قول ما يستفاد منه انهم سيأتون أمرا نكرا قالوا بصوت التهديد انهم سيلبسون القبعة لان لبس القبعة لا يقل فى نظر المسلمين عن جريمة التنحى عن القومية والكفر بالدين .

وعلى كل حال فالذى نتمناه ونقترحه فى هذا الموضوع ان يجعل المصريون فى طرابيشهم رفرفا يظلل وجوههم بحيث تضاهى به القلنسوة التى يحملها جنودنا فى افريقية . اذ مما تمس الحاجة اليه فى بلد كمصر يشتد فيها سطوع الضوء وحرارة الشمس وقاية العينين والجبهة من تأثيرهما الضار . غير انى لا زلت اشك فى اقبال المسلمين على العمل بهذا الاقتراح النافع لان الرفرف الذى اشرت اليه الآن يجعل الطربوش شبيها بالقبعة وهو ما يمقتونه ويتقونه بكل الوسائل .

٣٧ — الحـــــذاء

لا يلبس المسلمون عامة الجوارب . ولكن اصحاب اليســــار منهم يستعيضون عنها بشيء من الجلد الاصفر يسمونه المزد فاذا لبسوا هذا الشيء الذى لا هو بالجورب ولا هو بالحذاء دســـوا أقدامهم فى حذاء من الجلد الاحمر أو الاصفر يســـمونه بالمركوب واللون الاصفر فى المركوب كان لا يسمح به سابقا الا للمسلمين . أما المسيحيون فكان لا يسمح لهم الا بالاحذية الحمراء اللون . وكان السواد اللون الاصلى فى أحذيتهم .

وفائدة لبس الحذاء والمزد معا عند الشرقيين انهم اذا غشـــوا مجلسا أو مسجدا تركوا أحذيتهم مع ما يكون عالقا بها من القـــذر عند الباب وساروا بالمز على الحصر والبسط والسجاجيـــد بدون أن يمسها شيء من الاذى وبقيت أقدامهم مكسوة غير عارية .

٣٨ — أفكار وخواطر فى الزى الحديث

بالرغم من أن الزى الجديد قد تناول اللباس المألوف بالتعديل والتغيير فانه لم يفقد شيئا كثيرا من صبغته الوطنية لانه جمع بعـــد تعديله الى مزايا اللباس الافرنجى أخص ميزات اللباس الاسلامى . على أنه لم يكن زيا مستحدثا فقد كان معروفا فى ألبانيا والروملى ومألوفا عند أهليها فاذا اختاره محمد على وفضله على غـــيره من الازياء فما ذلك الا لانه طابق عنده ما كان يرمى اليه من حسن التدبير وسلامة الذوق . أما حسن التدبير فلانه لو فرض على أفراد رعيته اتخاذه لباسا لهم لاثار غبار الاعتراضات من جهة رجال الدين وجر الى نفسه كراهيـــة الجمهور ونفوره . واما سلامـــة الذوق فلان الذين اعتادوا لبس الثياب الواسعة عرفوا مالها من المزايا على الثياب الضيقة وأنها تعوق حركة المفاصل ولو انساقوا بحـــكم

التقليد الى لبسها لاضجرتهم فقلقوا وتبرموا وربما أبرزهم القلق والتبرم الى المترصدين للانتقاد فى شكل يحملهم على الاستهزاء والاستخفاف بهم .

وما حصل من هذا القبيل فى الاستانة دل على صدق نظر الوالى وسلامة ذوقه وسداد رايه وسرعة خاطره فان السلطان محمود قد البس جنوده شوار الجنود الاوربية بدون تحوير وهو مؤلف من القميص الضيق ورباط الرقبة والبنطلون الضاغط على الفخدين والسترة الواصفة بضيقها للجسم والاحذية المغطاة فكان ذلك كله فيما عدا الطربوش نسخة طبق الاصل من الشوار المومأ اليه . وهو ما استاء العثمانيون منه بانتقاده واستهجانه وتقبيح رأى مقترحيه والذين سعوا الى تنفيذه بلا نظر الى ان الجيش الذى البس ذلك الشوار الافرنكى جيش اسلامى . لا يجوز له التشبه فى زيه بالجيش المسيحى لا سيما وأن الاتراك يتضايق بهم اللباس الاوربى ولا يشعرون معه براحة حتى أنهم قلما يعنون لهذا السبب بأحكام ثيابهم او طلب التأنق فيها أو صرف العناية بتدبيرها فكان هذا باعثا آخر على تحول ذلك الاصلاح السلطانى الى موضوع السخرية والتهكم .

وليس من الانصاف بالرغم مما تقدم انكار ما لتطبيق الاصلاح المومأ اليه من النتائج الطيبة بقضائه على الفروق التى جعلت المسلمين فى معزل عن اهل اوربا وصيرتهم اجانب عن هذه القارة وهم انما يعيشون فيها . اما الاصلاح الذى قام به كان من نتائجه ان اقرب مسألة الخلف بين اللبسين المصرى والافرنجى بدون أن يؤثر فى نمطها الاصليين تأثيرا ذاهبا بكيانهما . وهذا سيفضى حتما الى دور من ادوار الانتقال فى موضوع اللباس يتم فيه التحول من غير صدام ولا احتكاك .

وأنماط الملابس ولا سيما اذا كانت رمزا صحيحا للتقاليدالدينية والقومية كما هى عند المسلمين كثيرا ما تقيم بين الشعوب حواجز تتعذر ازالتها . فاذا نظرنا فى الامر من هذه الناحية فلا يسعنا الا الحكم بخطأ الاصلاح الذى قام به كل من الوالى محمد على والسلطان محمود . وبدهى أن الفنانين الذين يسرهم بقاء القديم على قدمه لسوف يأسفون على مزايا الملابس الواسعة وفوائدها التى تجل عن الحصر ، ولكن الذين ينظرون فى الامر نفسه من الناحية العملية لسوف يرون انهم عوضوا عن تلك المزايا الصورية والمحاسن الظاهرية بخير منها الا وهو ما اثمره ذلك الاصلاح من النتائج الجليلة والفوائد الجمة المطابقة لمقتضيات الزمان والمكان من جهة والتى لا تخالف من جهة اخرى العقائد المستقرة فى النفوس .

هذا وفى النصوص الشرعية ما يحرم على المسلمين لبس الثياب الحريرية أو المزركشة بأسلاك الذهب ويحظر عليهم التحلى بالذهب والفضة . ولكن صرامة الاوامر والنواهى الدينية فى هذا الموضوع لم تتغلب على ما هنالك من النزعة الطبيعية الشديدة الى التحلى والتجمل . ومفهوم ان الشارع أنس فى العرب الرغبة فى التجمل بالحلى والثياب الفاخرة فحاول ، ولكن عبثا ، ان يصدهم عن مناحى هذا الميل بما سنه من تلك النواهى الصارمة . ويقينى أن لا أمة من امم الارض قد شغفت حبا كالامة الاسلامية بالتحلى بالذهب والاحجار الكريمة والثياب المزركشة واسرفت من مظاهر التزين والتجمل على انواعها . ورغم هذا فان المسلمين لا يحكمون الذوق السليم فى تنسيق زينتهم وترتيب أوضاع حلاهم ولا يدرون كيف يوفقون بينها حتى لا تنبو الانظار عن رؤيتها وتمج الاذواق شكلها لما استحكم فى اجزائها من التنافر وزال عنها من طلاوة التجانس والتشاكل فانه لا يبعد فى

بلاد الشرق الاسلامى أن يقع نظرك على رجل يحمل صــــدرية مزركشة بأسلاك الذهب على ثياب رثة واطمار بالية .

ولا يقتنى المصريون من الثياب بقدر ما يقتنى الاوروبيــون منها عددا ولكن اثرياءهم واصحاب اليسار منهم يكثرون منهـا ويلبسونها على التعاقب ويغيرون المجاسد اى الثياب التى تلى الجسد مباشرة مرارا فى الاسبوع الواحد . أما عامة الشعب فعلى عكس ذلك ولذا كانوا من أحوج المصريين الى رعاية النظافة والعمل بقواعدها . والمصريون لا يستعينون بالرماد فى غسل ثيابهم اذ يكتفون فى تنظيفها بالمــاء البسيط والصابون ولايحملون الثياب مثنية ولا مكوية .

٢٩ ــ ثيــاب الفــلاحين

ثياب الفلاحين فى الدرجة القصوى من البساطة اذ تنحصر فى قميص وسروال من الكتان يعلوهما قميص أزرق سابغ يسمونه « العرى » يضبطونه حول الجسم بنطاق من الجلد او القماش ، وقلنسوة الفلاح صنف من طربوش أبيض او رمادى يعرف باللبدة . وفى الشتاء يلبسون بدلا من العرى عباءة صوف واسعة الاكمــام تسمى عندهم بالزعبوط .

وتختلف أشكال اللباس المصرى باختلاف الجهات فسكان الوجه البحرى يستوفون فى ملابسهــم شروط الصحة المتفقة مع أحوال الطقس فيــه وسكان الاسكندريــة يتخذون جميعــا ثيابــا من الجوخ شبيهة بثياب المغاربة . أما القاهرة فالثيــاب فيها أخف منها فى الوجه البحرى والاسكندرية غير ان الذين لا يستطيعون من اهلها اقتناء ثياب الجوخ يكتفون بالثياب القطنية . ومن غريب التناقض فى موضوع اللباس فى مصر ان سكان الوجــه القبلى ــ

وجوه على هو معلـوم من شـدة الحرارة ـ يرتدون الاقمشة الصوفية حتى فى اشهر الصيف . ويقتصر الرجال والنسـاء فى ضواحى أسوان فى لباسهم على حزام من الجـلد (الرهط) يضربونه على خصورهم فلا يستر من اجسادهم سوى العـورة كالمشهود عند الامم المتوحشة بالسواء .

٤٠ ـ عادات المصريين فى تدبير الشعر

يرى المسلمون أن حلق الشعر فرض محتوم عليهم بحـكم الدين فهم يزيلونه برمته ولا يتركون منه سوى خصلة صـغيرة وسط الجمجمة يسمونها « بالشوشـة » يعللون ذلك بأنهم اذا وقعوا فى أسر العدو وسيقوا الى الاعدام برمى الاعناق جذبهـم العدو منها لكى يمضى فيهم حكمه فلا يلجأ الى وضع يده المدنسة فى افواههم أو يقبض بها على لحاهم .

وشعر المصرين كشعر أقوام المناطق الحارة غير غزيروخصوصا فى اللحية . وهم يحلقون منه الجزء الذى فوق الفك الاسفل وشيئا من أسفل الفك تحت الشاربين ويغفلون الجزء المصطح على تسميته عندنا بالملوكية (لارويال وهى طريقة لتسوية شعر اللحية كانت شائعة فى فرنسا على عهد الملك لويس الثامن عشر) ويحلقون تحت الذقن جزءا من اللحية وما يكون ناشزا من شعر الوجه ويدعون اللحية تنمو حتى يبلغ طولها قبضة اليد ويقصون الشارب الى ما يوازى الشفة العليا وهم فى ذلك يخالفون الاتراك الذين لا ينقصون شيئا من أطرافه بالمقراض فينمو نموا عظيما .

وللحية احترام عظيم عند الشرقيين لانها رمز الرجولة والحرية والقوة النفسية والبدنية . والقسم باللحية والشاربين (الشنب) يمين لا يحنثون فيها . واذا ذكر أحدهم بقلة الفهم قالوا ان عـد

شعر لحيته مستطاع . وهم شديدو العناية بها ويحرصون علـى تعهدها بالنظافة والطيب لمكانتها عندهم واحترامهم اياها فتراهم كلما اغتسلوا أو توضأوا ونظفوها بالصابون وضمخوهابالروائح العطرية واذا كانوا فى بعض الاحيان يصبغونها بالحناء فما هو الا لما رسخ فى اعتقادهم من أن سواد اللحية شطر من الجمال وهم لا يعدلون عن صبغها الا لاتقاء الفتنة ومع هذا فعادة الصباغة آخذة بالزوال والاندثار الآن على توالى الايام .

وقد امر الوالى محمد على بحذف اللحية فى الجيش وحتمه على الضباط والعساكر سواء . فأصبحنا الآن نرى قواد الجيش والباشوات وقد تساووا فى محو آثار هذه الحالة الطبيعية التى كانوا فيما مضى يهتمون بأمرها وعندنا أن ازالة اللحيـة سيذهب بأحد السياجات الكثيرة التى ما برحت تحول بين الاوربيين والشرقيين وهى من الاهمية بمكان لاينكره الا المكابرون لانها بازالتها أحـد الفوارق والمتناقضات التى من شأنها ان تجعل الشرق على الدوام شرقا والغرب غربا تتحقق فكرة اتحاد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض اذا لم يكن فى كل شىء فأقل ما يكون فى الاخلاق والحالات النفسية العامة .

وفى النظام الملكى لا يربى الشاب لحيته الا اذا أذنه والـده بأرخائها أو اذا حان وقت زواجه . أما الارقاء فيحرمون تربيتها . ولكن اذا بلغوا سن الكهولة وأحبوا أرخاءها اذن لهم سادتهـم وأجابوهم الى رجائهم .

ومن لالحية له يرخى شاربيه عـلى كل حال لان الشرقيين يرمون من لا شاربين له بأقبح الصفات ويلصقون به العار . لذا انصح الى الاوربيين الذين يجيئون الى الشرق للسياحة بأن يعنوا بهما ولا يتركوا الموسى تسطو عليهما .

وشهدت بنفسى نادرة مضحكة ذات علاقة باللحية وانى اذا تصديت لذكرها فى هذا المقام فما هو الا الازجى الى ذهن القارىء فكرة عن مبلغ اهتمام المصريين بهذه الشارة التى يعدونها دليلا على كمال الانسان ورجولته.

فى عام ١٨٣٤ كنت أطوف فى بعض بلاد القطر لاداء مهمة تتعلق بالتجنيد فلما وصلت الى الزقازيق ، وهى قرية صغيرة من قرى الوجه البحرى واقعة على الضفة اليمنى من بحر مويس، شهدت قضية غريبة كانت اللحية سببها . ذلك أن شيخ البلد كان قد جاء برجل طاعن فى السن لينظمه فى السلك العسكرى فلم أوافق على قبوله من الوجهة الطبية وكان هذا يخوله الحق فى الحصول على الاذن ، وقد أعفى من الخدمة العسكرية ، بالانقلاب الى أهله . ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل دنا من المأمور واخذ يشخص فى شيخ البلد الذى جاء به لينظمه فى السلك العسكرى وصاح قائلا : « الم اقل لك اننى غير صالح للخدمة العسكرية» ثم التفت الى المأمور واسمه حسن وقال : « أنصت الى قولى أيها المهاب . ان شيخ البلد هذا خصمى وقد حتم على مفارقة الاهل والوطن لاقضى بقية حياتى فى ظلال البنادق والسيوف مع مجاوزتى الاربعين من العمر . ولكى يصيب هذا الغرض أكرهنى على ازالة لحيتى لابدو صغير السن فى نظر البكوات وما أنا كذلك فى الحقيقة فكيف أستطيع الآن ، وهى دليل مكانتى وشارة شرفى ، أن أعود الى بلدى سليب اللحية ، انى ان عدت اليه لا شك ذاهب فريسة ضحك الصغار وموضع رثاء الكبار فبحياة النبى اقض بينى وبينه بالعدل فانك ابن ابراهيم صاحب العدل والبطش » .

فتأثر المأمور بهذا القول وسأل القاضى الذى كان حاضرا فى تلك الآونة أن يدون حكمه فى الموضوع . وكان القاضى متربعا

على سجادة يهز رأسه هزا خفيفا كعادة القوم هنا اذا فكروا وترووا ثم نطق بالحكم الآتى ولم يكف عن هز رأسه : « جاء فى سورة البقرة (والحقيقة المائدة) من القرآن الحكيم — « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » — ولكن لم يرد فيها شىء عن اللحية .

وكان شيخ البلد والقاضى حينما طرحت المسألة على القضاء يتبادلان اشارات تفيد التواطؤ بينهما على أمر ما . فلما سمع المأمور ذلك فكر مليا وأخذ يمر بيده على لحيته التى خطهـا الشيب ثم قال : « الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه ، حيث ان من المباح أن يقص احدهم لحية أخيه فقد حكمنا بأن تقص فى الحال لحية حضرة القاضى » ومعنى هذا أن القاضى اذا اصبح ولا لحية له صار فى حكم المعزول يسخر الناس منه . فما كادت هذه الكلمات ترن فى أذن القاضى حتى اعتراه خوف شديد واعتذر وابتهل وبادر ينقض حكمه الاول منصرفا الى تطبيق قاعدة « العين بالعين » السالفة الذكر .

وكان شيخ البلد شديد التعلق بلحيته فخشى أن يسطو المقراض عليها وأن يذهب ضحية التهكم عليه من قومه فالتفت الى صاحب الشكوى وهو ذلك الرجل الذى اكرهه على قص لحيته وقال له : « يا خليل يا اخى ! هل اذا قصت لحيتى تنفيذا لحكم القاضى تنبت لحيتك فى أسرع ما تنبت اللحى فيه عادة من الزمن ؟ ان الاولى بنا التراضى والاتفاق على أمر . قل لى ماذا يرضيك تعويضا لك عن الضرر الذى الحقته بك ؟ » فدارت المساومة على تقدير قيمة لحية الرجل حتى انحطت على ستين قرشا أى ما يقرب من خمسة عشر فرنكا . ومع أن الرجل قد حصل بهذه الترضية على ما كان يبتغيه من العدل فى قضيته

لم يشأ أن يعود الى بلده بل ظل فى خدمة المأمور الى أن نبتت لحيتـــه .

والنصارى من سكان القطر المصرى يجلون اللحية . بقـــدر ما يجلها المسلمون ويتبعون فى تربيتها وتدبيرها والعناية بها عين الطريقة التى يتبعها هؤلاء . واجمل اللحى وأوفاها حجمـــا لحى القساوسة لانها أدعى الى احترامهم وتوقيرهم . واذا لم ييسر للمذهب الكاثوليكى فى الشرق الانتشار المرجو له فما هو الا لان قساوسه يجردون أذقانهم من اللحى .

وعادة المصريين من مسلمين ونصارى أن لا يقروا بالطـــاعة لرؤساء دينيين لا لحية لهم اذ يقولون انه لا فرق بينهم وبين الارقاء فى الحرمان منها وبالتالى لا احترام لهم ولا مكانة فى النفوس .

واذا كان قداسة البابا هو الذى استحسن تجـــريدهم من اللحى فانك ترى المصريين من الطائفتين ينظرون الى قساوستنا بعين الشفقة المزوجـــة بالازدراء . ولست أدرى كيف سرى الى كل هذا الشعـــور فانى لا أتمالك هنا من الاعتـــراف بأننى لمـــا ذهبت الى روما وحضرت الصلاة التى أقامها قداسة البابا بنفسه فى حفلة فخمة أسفت الاسف كله من أن هذا الشيخ الجليل لـــم يضف الى العلامات المحسوسة التى يقصد بها الى توقيره واجلاله التأثير الرهيب الذى يقع فى نفوس الناظرين لو احاط وجهـــــه بهالة لحيته البيضاء . وانى لمعتقد بأن اللحية خير ما يليـــــق بالوقار الكهنوتى ولست أستبعد اليوم الذى يطالب فيه أحـــــد البابوات الذين سيخلفون البابا الحالى على الكرسى الرســـولى الكرادلة والاساقفة بل أعضاء طبقات النظــــــام الاكليروسى كله بارخاء اللحى واثق بافضاء الخطة التى تقتضيها كرامة الـــديانة المسيحيـــة لدى الشرقيين الى نتائج تستوجب الرضا والارتياح

لا سيما وان الشرقيين تؤثر فى نفوسهم المظاهر الخارجية أكثر مما يخطر فى بال الاوربيين .

وفيما عدا اللحية يعنى المسلمون بازالة الشعر من جميع أجزاء الجسم التى ينبت فيها عادة وهذه الازالة تتم عندهم بطريقة من ثلاث اما حلق الشعر واما نتفه أى استئصاله واما اسقاطه بعجينة مركبة من الجير وكبربتور الزرنيخ بحالته الطبيعية وبعض العامة يحلون أيديهم وأذرعتهم بالوشم المعروف بالدق .

٤١ ـ النظافة والوساخة

أدرك النبى اهمية النظافة فى بلاد حرها كنار تلظى ففرضها على أصحابه فرضا دينيا فالمصريون يحرصون كل الحرص على تنظيف أعضاء التناسل ومواضع التبرز مرارا فى اليوم ولايزاولون هذه العملية الا باليد اليسرى باعتبار أنها الخاصة بالنجاسات واما اليد اليمنى فتستخدم فى الاعمال الطاهرة الشريفة كتناول الطعام والمصافحة الخ وهم يكثرون من الاستحمام وسنتكلم على هذا الموضوع فيما بعد .

ومن عادة المسلمين الا يبصقوا فى حجراتهم ولا فى مساجدهم فاذا كانوا فى حضرة غيرهم من الناس وأحسوا بالحاجة الى البصق اداروا وجوههم وبصقوا فى مناديلهم بأتم ما يكون من الاحتياط والحذر .

وهم يسمحون لانفسهم بالجشاء على الطعام وأثناء الكلام بل وخلال الصلاة ويتجشأون بصوت مرتفع ينكره الاوربيون ويستاءون منه لجهلهم جريان عادة القوم به . والظاهر أن العرب نقلوا هذه العادة الى أسبانيا فانها لا تزال باقية ومعمولا بها حتى الآن .

وبالرغم من أن الدين الاسلامى قد فرض النظافة فان الاغنياء كالفقراء كثيرا ما تحتوى ثيابهم القمل وهم لا يخجلهم وجـــوده ولا يعنون بابادته وتطهير أجسامهم منه بل يقتصرون ، بما جبلوا عليه من الدعة والخمول ، على امساكه بأطراف الانامل وطرحه على الارض بعيدا عنهم . ولدى أرباب اليسار أداة خاصـــة من الخشب فى شكل المغرفة يحكون بها ظهورهم ليخففوا عن أنفسهم آلام وخزها ولسعها . وقد نسب وجود القمل عنـــد المصريـــين الى الوساخة وحرارة الطقس واستعمال الثياب القطنية والاخلاد الى الراحـــة والنعيم والامساك عن المشروبات المتخمرة امساكا تامـــا .

ومع أن المصريين يغسلون أفواههم مرارا فى اليوم الواحـــد فان ذوى اليسار منهم الذين يراعون هذه القـــاعدة يصيب التلف أسنانهـــم أجمعين بخلاف الفلاحين فان اسنانهـــم ناعمة البياض جميلة الشكل وقد تكلم المؤرخ هيرودتس على الاطباء فى مصـــــر أيام الفراعنة فذكر منهم طبقة كان همها الوحيـــد الاشـــــتغال بعلاج الفم . وهو ما يؤخذ منه أن داء الاسنان كان شـــــائعا فى القطر المصرى ومعروفا فى كل الادوار التى تقلب فيها وأن من الخطأ المحض نسبته الى تعاطى القهوة أو التدخين وانما السبب الحقيقى له هو النظام الغذائى الذى يتبعه الاغنياء بأكلهم اللحوم والخضر المهيأة بالسمن وتناولهم الاطعمة الحارة ثم الباردة بغـــير نظر الى ضرر الانتقال المتعاقب من الحر الى البرد ومن البـــــرد الى الحـــر .

ولا يستعمل المصريون الفراجين الشعرية التى اعتدنا تنظيف أسناننا بها لانهم يخشون احتواءها شعر الخنزير وهو دنس فى شريعتهم . ولكنهم يتخذون لتنظيف أسنانهم جذورا ليفية لنبـــات يقال له الاراك ينمو فى سنار وبلاد العرب .

ولا يتولى المصريون بأنفسهم تقليم أظافرهم بل يتركون للحلاق اداء هذه المهمة بالمقراض وهم يستأصلون الاجزاء البارزة منها .

ومن عاداتهم ، اذا تربعوا على الفراش ، أن يشبكوا سوقهم بعضا ببعض وأن يمروا بيديهم على باطن القدمين لانهم يحبـــون الشعور بالتأثير الذى تحدثه هذه الملامسة .

٤٢ ـ الحمـــامات

يفرض الدين الاسلامى على المسلمين الاستحمام بالماء الساخن لازالة القذر . وشدة الحرارة فى بلادهم تجعلهم يستشـــعرون بالسرور والهناء كلما قاموا بهذا الواجب فلا يدهش أحدا ما يراه من اقبالهم على الحمامات واكثارهم من الاستحمام .

ولقد رأينا فيما تقدم أن عدد الحمامات العمومية عظيم جــدا فى القطر المصرى وأنها فى الغالب ملحقة بأحد الابنية الدينية . والموجود الآن منها فى القاهرة سبعون حماما بعضـــها مخصص للرجال دون غيرهم والبعض الآخر للنساء وصغار الاطفال والشطر الاكبر منها للرجال والنساء على أن تخصص فى الصباح للرجـــال وبعد الظهر للنساء . فاذا كان الحمام مشغولا بالنساء علقـــوا ببابه قطعة من قماش الكتان أو الجوخ اشعارا للرجال بأنهم لايجوز لهم الدخول فى الحمام . وفى كل حمام خدم من الذكور لمبـــاشرة تنظيف الرجال وغسلهم وخدم من النساء لاداء هذا الواجب نحـــو السـيدات .

وواجهة الحمامات مزخرفة على النمط الذى تزخـــرف به المساجـــد . ويغلب اللونان الابيض والاحمر فى هذه الزخرفـــة خصوصـــا حول المدخل . أمـــا الحمام نفسه فيتألف من حجرات

مبلطة بالرخام المختلف الالوان ويتلو بعضها البعض . وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ الضوء بواسطتها من خلال قطع متكورة من الزجاج . والجدران والقباب تبنى عادة بالآجر والمصيص وتوجد على مستوى الاجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية القزان بالمـــاء وهو يؤخذ اما من بئر أو من حوض فى أسفل البناء .

والقسم الاول الذى يمر به راغب الاستحمام يسمى المسلوخ ويحيط به صفف مفروشة للجلوس وفيه يتجرد المستحم من ثيابه . واذا كان يحمل ساعة أو نقودا أو سيفا عهد حراستها عنــــد دخوله الى حارس الحمام الذى يسمونه بالمعلم .

ومتى تجرد الانسان من ثيابه جعل على وسطه فوطة كبــيرة ولبس قبقابا من الخشب وقصد بعد ذلك الى مكان الاســـتحمام بواسطة دهاليز عديدة ضيقة يعتاد بالمرور فيها التدرج عـــــلى الحرارة الاخيرة للحمام وهى التى لا يطيقها المستحم الا بهـــذا الانتقال التدريجى المتعاقب .

والحمام نفسه عبارة عن بهو كبير ذى قبة عالية وأرضـــية مفروشة بالرخام وفى وسطه حوض ماء ساخن تنبعث منه سحب من الابخرة لا تلبث أن تتكاثف فوقه ويستمر انبعاثها على الـــدوام فتختلط بالروائح الزكية التى تحرق فى المباخر . وطريقة الاستحمام أن يتمطى المستحم على قطعة من القماش بحافة الحوض ويســـند رأسه الى مخدة صغيرة ثم يتخذ من الاوضـــاع ما يراه الانسب لحاله والاوفق لراحته ومزاجه . وتكون السحب العطرية المنعقدة ببخار المـــاء قد أحاطت بجسمه وأحدثت شيئا من التمدد فى مسامه جميعـــا .

وعقب برهة من الوقت يقضيها المستحم فى هـــذه الراحة اللذيذة تكون البشرة قد اكتست بطبقة خفيفة من الرطوبة فيـأتى عندئذ أحد عمال الحمام ليبدأ عمله بذلك الجسم ولكنه قبل الدلك يضغط الاعضاء ضغطا خفيفا متداركا ويطويها طيا رفيقا حتى اذا اكسبها المرونة الضرورية فرقع ما تحتـــويه من المفاصـــل ثم تصرف فى الجسم بما يخيل معه أنه بأصبعه السريعة يعجن اللحم الذى يلمسه بها عجينا يراعى فيه الرقة واللطف . وفى أثنـــاء هذه العملية التى لم يقل أحد انها أفضت الى حادث مضر لا يقتصر على فرقعة تلك الاعضاء بل يعدوها الى الرقبة مرتين على الاقل. وحينمـــا تتم الانة المفاصل على هذا المثال يحك الكعبين وباطنى القدمين بحجر خشن ذى مسام متخذ من الآجر المطبوخ فيعمل عمل المبرد فى الحديد ثم يدلك اللحم بقطعة من الصوف تسمى الكيس . وبتأثير هذا الدلك الشديد يخيل للمستحم أن البشرة تنـــزع من مكانها ولكن الحقيقة أن الاقذار هى التى تنزع من البشرة وتسقط تباعا من تحت الكيس على شكل اسطوانات مستطيلة ممتزجـــة بما غمر الجســـم من العرق . ذلك لان الجزيئات الصغيرة التى كانت تسد المسام ينتزعها الكيس من مكانها فيتكون من اجتماعها بعضها ببعض ما يشبه الشكل الاسطوانى السالف الذكر . ومتى تمت هذه العملية شعرت بالبشرة وقد تناسق ســطحها ونعمت نعومة الحرير ولا يستطيع المرء أن يتصور مقـــدار القـــاذورات والاوساخ التى تخرجها يد المدلك من جسم أكثر الناس نظافة أى من جسم الذى اقتصر فى الاستحمام على الحمامات المنزلية ولو تتابع استحمامه فيها .

ينتقل المستحم بعد ذلك الى خلوة يصب ذلك الخادم فيهـــا على رأسه رغوة من الصابون المعطر ثم يغسله بقطعة من الياف النخل يسمونها بالليف فاذا تم تنظيف رأسه وجسمه بهذه الطريقة

ينزل فى حوض ماء ساخن ثم يغطى رأسه وجسمه بعد الخــروج منه بالبشاكير الكبيرة ويعود الى البهو الذى تجرد فيه عن ثيــابه وهناك يطرح نفسه على طراحة يغطى فيها مرة أخرى بالبشاكير الجافة ويجفف المـــاء الذى كان على جسمه بها بالدلك مرة اخرى ويقضى فى هذا الوضع نحو نصف ساعة مستشعرا النعيم والراحة وتقدم اليه خلال ذلك القهوة أو الشبك للتدخين حتى اذا ما انتهى من ذلك كله لبس ثيابه التى يبخرها الخدم ببخور العود .

والعادة ان الانسان اذا استحم على هذه الطريقة الشرقية شعر بهناء ولذة ونعيم يستحيل عليه وصفها . وغاية ما يقال انه يستشعر بمرونة فى الاعضاء ونشاط فى الجسم لم يســـــبق له اعتيادهما بل يستشعر بأن حملا ثقيلا القى عن عاتقة أو أن حياة جديدة فتح له بابها وفيها يتمتع مع الهناء والسعادة بحياة طيبـــة لا يدرك قدرها الا العقل والقلب كما يدركه جميع الجوارح .

وكثيرون من الناس يقصدون الى الحمامات مرتين فى الاسبوع كما يقصدها غيرهم مرة واحدة وأقل من مرة فيه . ومنهم من يقتصر على الاستحمام فى حوض ويغسل راســـه بماء الصابون المعطر . والاغتسال فرض على المسلمين كلما ضاجعوا نساءهم أو لحق بهم دنس من أى نوع ما .

ورسم الدخول فى الحمام زهيد جدا . وفى متناول يد الناس جميعا فالفقراء منهم لا يعطون رسما لاستحمامهم أكثر من خمس بارات الى عشر أى من ثلاثة سنتيمات الى ستة . وهم بهـــذا الرسم لا تدلك اجسامهم بالكيس ولا تغسل بالصابون .

أما أصحاب اليسار فيدفعون رسما للاستحمام الكامل مـــن قرش الى خمسة قروش أى من خمسة وعشرين سنتيما الى فرنك

واحد وربع الفرنك على أن الدخول فى الحمامات أمر من الاهمية بحيث لايوجد ثرى الا وفى بيته حمام خاص به .

واعتقد أن الحمامات الشرقية مفيدة للصحة افادة تامة ، اولا لانها كفيلة باستمرار النظافة . وهو الامر الذى لابد منه فى بلد تبلغ الحرارة فيه هذا المبلغ ويكثر العرق ويثور الغبار . فيكون ذلك كله من بواعث القذارة ثم انها لما كان امتناع العرق فى مصر من أهم بواعث الامراض فان استعمال الحمامات يكون من هذه الوجهة نافع الاثر عظيم الفعل بايقاظه على الدوام الوظائف الجلدية . وبدهى أن التجربة أثبتت للشرقيين فائدتها من هذه الجهة ولهذا تراهم متى استشعروا بألم أو بضعف ولو خفيف فى الجسم أو بجفاف فى البشرة الى غير هذا من العوارض قصدوا الى الحمام من فورهم وقضوا به بضع ساعات ثم كرروا هذه العمليات أياما متعاقبة .

والى الاستحمام فى الحمامات يرجع الفضل فى شفائهم من الامراض الخطيرة كالامراض الزهرية والجرب الى آخر الامراض الشائعة فى الشرق .

ومما لا ريب فيه أن انتشار الحمامات فى الشرق سبب من اهم أسباب نقص الامراض الجلدية كالبرص وغيره التى كانت فى العهد السابق ، بتفشيها بين الناس ، تلحق بهم أضرارا كبيرة وتفتك بحياتهم وبناء على ما تقدم فاننى أعتبر أن الحمامات الشرقية من أقوى عوامل حفظ الصحة عند الشرقيين . وانى اتمنى على لله المنى أن يشيع استعمالها فى البلاد الاوربية لان الحمامات التى انشئت بها حتى هذا اليوم ليست الا تقليدا معيبا للحمامات الشرقية اذ توزيع أقسامها ردىء والانتقال فيها من الحر الى البرد لا تراعى فيه شروط التدريج . هذا فضلا عن أن التدليك والكبيس ليسا فيها كما هما فى حمامات الشرق .

ومع انتشار الحمامات فى مصر السفلى فانها غير معــروفة فيما يلى مدينة جرجا جنوبا لان الاهالى هناك من رجال ونساء يكتفــون بالانغماس فى النيل المتاثر بحرارة الشمس والخروج منه وحرارة الطقس هناك تقوم مقام الحرارة الصناعية الناشئة عــن تباخر الابخرة من المـــاء الساخن فى الحمامات العادية .

٤٣ ــ استخدام الوقت والاشغال

ينهض المصريون مبكرين اذ من واجب المسلم الذى يهمه اداء صلاة الصبح فى ميعادها أن يستعد لها عند بزوغ الفجر فيلبس ثيابه ويهيىء نفسه . وأول عمل يقوم به بعد أدائه فــــرض الوضوء والصلاة ان يشعل شبكه ويتعاطى قهوته . وكثير منهم يكتفون فى الصباح بهذا الشراب ولكن غيرهم يميلون الى تنــاول طعام الفطور .

والموسر المتصرف فى وقته يمتطى بعد ذلك جواده وينطلق به الى منازل اقربائه ومعارفه لزيارتهم أو الى السوق لشراء بعض اللوازم ثم ينتظر ساعة العشاء متحدثا مع صديق له ويتنـــاول طعامه الاول قبل الظهر ثم يدخن ويشرب القهوة . وبعد العشاء يدخل الى حرمه حيث تسهر زوجته وجاريته على اعداد ما تتوافر به الراحة له ، وهناك ينام ساعتين أو ثلاث ساعات وبمجــرد ما يستيقظ من نومه يغسل وجهه ويعمل على كيفة .

وهذه الكلمة لا مقابل لها فى لغتنا وانما تدل على حالة بهــــا تتوافر الراحة والنعيم للعقل والجسم معا ويسكن الانسان فيهـــا الى الدعة والتمتع بالسعادة وتقف الحياة العملية . فهو بالجملة نوع من السبات ترتاح النفس اليه وتكمل اللذة به تلك اللذة التى لا يفيد معناها الا كلمة Far nienic عند الايطاليين ثم يدخن جملة

شبكات ويتعاطى القهوة ويلعب بلعبة الدامة او الشـطرنج حتى العصر حيث يعود الى منزله لاداء الصلاة أو يذهب الى المسـجد للقيام بهـا فيه . وبعـد انتهائه من ذلك يخرج للنزهة راجلا أو راكبـا ثم يعود قافلا الى منزله قبـل غـروب الشمس بسـاعة كى يتأهب لصلاة المغرب وتناول طعام العشاء بعدها.وبعد العشاء يبرح منزله مرة أخرى اما الى احدى القهوات لسماع القصص التى يرويها الشعراء واما الى أحد الاصدقاء للمسامرة معه سـاعة من الزمان او ساعتين وهو ينام عادة فى الساعة الثامنـة أو التاسعة من المساء ما لم تكن هناك حفلة خاصة كزفاف عـريس مثلا فانه يطيل السهرة أكثر من ذلك . وربما يدعوه جمـال الطبيعة فى الليل الى الصعود الى سطح منزله ليستجلى منـاظر السماء ويستنشق النسيم العليل .

تلك هى حياة الرجل الغنى وهى حياة مبنية عـلى الدعة والسكون والتصون عن الاعمال فاذا شئت أن تصفها بوصف مافقل انها الراحة المطلقة . والظاهر أن المصرى يمقت الحركةويجتنب السعى حتى أنه لا يرى فى السير للنزهة باعثا من بواعث اللهـو ولا يستطيع أن يتصور كيف يجد الاوربيون لذة فى هذا النـوع من الرياضـة .

أما الذى يتولى مراقبة عمل ما او ادارته أو يكون موظفا فى احدى المصالح فانه يذهب فى الصباح الى مقر عمله أو مركـز ديوانه حيث يقضى النهار كله ويتناول فيه طعـام الغـداء ثم الى داره .

وجماعة التجار يقضون النهار كذلك فى حوانيتهم وهـذه الحوانيت لا توجد غالبا فى البيوت التى يسكنونها ولا فى الاحيـاء التى هم من أهلها .

أما الصناع فيبدأون أعمالهم مبكرين ومثلهم الفلاحون فانهم يخرجون الى حقولهم فى الصباح ولا يرجعون عادة الى بيوتهم الا فى المساء والاعمال الزراعية ليست على جانب عظيم من المشقة لانهم يؤدونها ببطء شديد ويقضون شطرا من وقتهم فى النوم لالتماس الراحة مما يكون قد نالهم من العناء ويكون نومهم غالبا معرضين لاشعة الشمس ، ولكنهم يقصعون فى أرديتهم اذا لم يكن بالقرب منهم أشجار يأوون الى ظلها . ولقد اعتادوا حرارة الشمس حتى أنهم قلما يضجرو نمن تأثيرها فيهم اثناء النوم أو يصيبهم منجرائها أقل ضرر .

٤٤ ـ النوم وطريقة الرقاد

ان الشعوب والاقوام الساكنة بالبلاد العثمانية بدوية الاصل كلها على وجه التقريب ، فليست مسألة النوم عندهم من المشاغل الهامة أو المسائل الخطيرة لانهم بما اعتادوه من تقويض خيامهم فى كل لحظة للظعون والانتجاع لا يحوطون النوم بالوسائل الكفيلة بالراحة التى تستلزمها معيشة الاقامة فى البيوت الثابتة وقد ورث الاتراك والعرب الحاليون فى هذه المسألة كما ورثوا فى غيرها من المسائل ما درج عليه أجدادهم من الاخلاق والنزعات والعادات فهم بوجه عام لا يعرفون استعمال الاسرة . نعم ان البعض منهم قد درجوا على استعمالها منذ سنوات قليلة ولكنهم الفئة اليسيرة . والذى جرت عليه عادة المصريين فى الرقاد أن يلقوا طراحة أو جملة طراحات فوق البسط أو السجاجيد ثم ينامون عليها بثيابهم ويزعمون أن هذا الفراش الذى يجهزونه فى بيوتهم كل مساء ويجعلونه لاصقا بالارض أصلح من كل طريقة سواها للرقاد بسبب احتفاظ الفراش فى كل نقطة من نقطة وجهة من جهاته بالاستواء الافقى . ويقولون أيضا أنه أقل كلفة من الاسرة وأبسط فى الاستعمال واذ كانوا لا يخصصون فى منازلهم

غرفا معينة للنوم بها فانهم يطوون الطراحات بسهولة ويرفعونها لوضعها فى مكان آخر وبذا يتصرفون فى الغرفة التى قضوا الليل فيها نوما لما يشاءونه من المصالح البيتية الاخرى .

وطراحات الشرقيين محشوة بالقطن وليست بذات سمك عظيم لان المصريين يفضلون الزيادة فى عددها على المبالغة فى حشوها . وسعة الطراحات من طول وعرض وسمك مقررة عندهم ومرعية فى كل مكان لان تقديرها بنى على ما هنالك من الضرورة لطيها ونقلها من مكان الى مكان ، دع أنه اذا كان الفرش مكونا من طراحات سميكة فانه يسد المنافذ ويكون باعثا على زيادة الحرارة .

وملاءات الاسرة عند الاغنياء تتخذ من الحرير او التيل الناعم وتكون الملاءة العليا متصلة بالغطاء .

واصحاب اليسار فى المدن يخلعون قبل النوم الثياب التى كانت عليهم فى النهار فلا يبقى منها على أجسادهم الا القميص واللباس ثم يلبسون جلبابا يسمونه بالقفطان يشدونه على وسطهم بحزام من الكشمير أو الحرير ويخففون من القلنسوة مكتفين بطاقية بسيطة .

والكثيرون من الصناع والعمال لا يملكون فى العادة مايفترشونه أثناء نومهم غير السجاجيد والابسطة . والفقراء منهم يتوسدون الحصر ، والنوم عندهم ليس من المسائل التى تستوجب قلق البال اذ أنهم يعمدون الى رداء واسع يلفون أجسامهم به أو يفعلون مثل ذلك بالغطاء الذى يبغون التغطى به ثم يرقدون على الارض . وقد اعتادوا جميعا هذه الطريقة فى نومهم الى حد انه لما شرعت الحكومة فى تنظيم الجيش على النسق الجديد

ارتأت الا تعطى العساكر فراشا ما للرقاد عليه مقتصرة على اسرة الميدان التى كان هؤلاء العساكر يفرشونها ببطانية صوف ثم ينامون عليها .

والظاهر أن المصريين ينامون طوع ارادتهم . فالاغنياء منهم اذا أحبوا أن يجلبوا النوم بسهولة كلفوا جواريهم أو خدمهم او نساءهم بكبس أقدامهم وسيقانهم فيفعل هذا الضغط فيهم فعل التنويم المغنطيسى . واذا اشتدت الحرارة عهدوا الى عبيدهم السهر طول الليل بجوارهم ليذبوا بالمذبات عن وجوههم ما يساقط عليها من الذباب أو ليروحوا على وجوههم بالمراوح ولهم طرق خاصة للاستيقاظ من النوم فانهم لا يستيقظون على جلبة صوت أو جذب يد ، كلا ! بل ان الخدم أو العبيد يدنون منهم باحتراس وحذر ويمرون بأيديهم مرا متداركا على باطن أقدامهم الى ان ينتبهوا من نومهم مستشعرين بلذة هذا اللمس .

٤٥ ـ أصوات النداء والتعجب والاستفهام والقسم الخ

لما كان المسلمون شديدى التمسك بالدين فانه غالبا ماتراهم أثناء محادثتهم يرفعون أصواتهم بذكر الاله والنبى والقرآن فى كل من تلك الاحوال . وهم شديدو الميل الى القسم فلا يستشهدون على ما يقولون الا بتلك الكلمات التى هى موضع اجلالهم واحترامهم وكثيرا ما ينطقون فى الايمان بكلمة « والله » وقبل أن يبدأوا بعمل أى شىء يرون من الواجب أن يقولوا « بسم الله الرحمن الرحيم » فاذا انتهوا منه قالوا « الحمد لله » وهم لا يحدثون أبدا عن شىء فى المستقبل الا اذا قالوا «ان شاء الله» أو عن حادث وقع فى الماضى الا وقالوا « الله اعلم » .

والمسلمون أبعد الناس عن سب الاديان واذا سمعوا احدا يسبها امتلأوا حنقا وغيظا . اما معجم الشتائم عندهم فغنى

بكثرة الالفاظ ومنها ما يندى الجبين خجلا عند ذكره فهم يتقاذفون بمثل لفظ « الخنزير » و « الثور » وهم يتظاهرون أحيانا بالبصق على الذين يشتمونهم لان البصق فى نظرهم أبلغ فى الاهانة والتحقير .

٤٦ ــ الخدم

اعتاد المسلمون الاكثار من الخدم وهؤلاء ينقسمون فرقا عديدة لكل فرقة اختصاص بحسب ما تزاوله من العمل . فمنهم الفراشون الموكول اليهم العناية بالشئون الداخلية فى المنزل وفرش الفراش الخ . ومنهم السقاءون الذين يحملون الى المنزل ما يحتاجه من الماء ، ومنهم الطباخون الذين يباشرون أطهى الاطعمة . ومنهم الشبكجية الذين يجهزون الشبكات بوضع الدخان وتقديمها الى المدخنين . ومنهم القهوجية والسواس الاولون لتقديم القهوة والآخرون لتدبير شئون الدواب . ولكل منزل بواب يحرس مدخله ويعرف الداخل فيه والخارج منه .

وجرت العادة بأن تكون رياسة الخدم للسقاء . وفى بيوت متوسطى الحال يكون لكل فراش من الفراشين رئيس مسيطر على افرادها . والخادم لا يؤدى سوى العمل الذى وكل بهأداؤه والذى يعتبر أنه صناعة له لا يجوز ان يتعداها الى غيرها . وفى هذا من المضار والعوائق ما يجعل رب البيت مضطر دوما فى قضاء حاجته . ولو كانت تافهة ، الى الاعتماد على أناس مختلفين يعلم احدهم ما لا يعلمه الآخر . دع ما يستلزمه أيضا من استخدام عدد عظيم من الخدم والقيام بالانفاق عليهم جميعا . ولقد تغيرت هذه الحالة بعض الشىء اذ قل عدد الخدم كثيرا عن ذى قبل واقتصر الناس على الاحتفاظ بمن لا يستغنى عنه منهم ، وذلك بفضل سمو الوالى ونجله ابراهيم باشا اللذين نصبا نفسيهما للقدوة فى هذا الموضوع .

والمسلمون كثيرو الرعاية والعطف على خدمهم اذ يتولون تغذيتهم وكسوتهم مع دفع الاجور المستحقة لهم . وليست هذه الاجور بالشيء الذى يستحق الذكر ، ومع ذلك فانهم يقومون بواجبهم خير قيام ويؤدون عن طيب خاطر الاعمال التى لم يكن القيام بها ، وقد قسمت ذلك التقسيم ، مما يستدعى الكلفة والمشقة . وان خادما واحدا عندنا ليقوم بسهولة ومن غير ضوضاء بعمل أربعة أو خمسة من الخدم المصريين ولذا نرى هؤلاء يعمدون الى الدعة والسكون ويميلون الى البطالة والكسل ولا يزاولون العمل بنشاط الا بدافع الخوف من العقوبة .

ولا يتخذ الرجال أبدا لخدمتهم خدما من النساء ولا النساء خدما من الرجال . والعادة الاوربية الجارية على عكس هذا المبدأ ، وهى من أخص عاداتنا وتسوء المسلمين كثيرا اذ يرون فيها العار والفضيحة كلهما .

والخدم المصريون شديدو الشره الى النقود . وعادتهم أن يسألوا جميع المختلفين الى منازل سادتهم ، وخصوصا فى أيام الاعياد ، هدية من المال يسمونها « العيدية » فانك اذا خرجت من منزل بعد زيارة صاحبه جروا خلفك ليساعدوك على امتطاء جوادك أو بغلك ثم مدوا أيديهم لطلب المكافأة الصغيرة المعروفة عندهم بالبقشيش . والبقشيش عادة جائرة متبعة وهى فى ذلك كعادة Bona Mano الشائعة فى بعض الاقاليم الايطالية . ويذهب الخدم المصريون المذهب البعيد فى المطالبة بالقشيش لانهم يتقاضونه فى مقابل ما يكونون قد أدوه اليك أو أداه سيدهم من الخدم وبمناسبة ما تكون قد قمت به منها لاجلهم فاذا أقمت مثلا وليمة ودعوت اليها أصحابك فانك ملزم بدفع البقشيش لخدمهم .

ولقد عدت بصفتى طبيبا أحد المرضى ولم أتقاض أجرة عيادتى له فما برحت غرفته حتى حوصرت بالخدم ولم أتخلص منهم الا بالقائى بعض النقود فى أيديهم . ولقد نهى سمو الوالى عن هذا العبث وشدد فى أمره ولكنه كان متأصلا فى النفوس فلم يستطع اقتلاعه منها .

وكان من غير المسموح به للمسيحيين فى البلاد الاسلامية اتخاذهم الخدم من المسلمين لاعتبار القوم استخدام المسيحى مسلما اهانة للاسلام وسبة . ولكن مصر ظلت بعيدة عن هذه العادة التى دعا اليها التعصب ولولا تسامح المصريين فى هذه النقطة لوقع الاوربيون المقيمون بها فى أشد الحيرة والاضطراب بدون ريب .

٤

النســـــاء

النساء المصريات — وسائل الزينة — ترجيج الحواجب — تلوين الجفون — والاظافر والاصابع وباطن القدم — الوسيلة الصناعية لتسمين العنق — الوشم — خفض النساء — النساء التركيات — سن البلوغ عند المصريات وحملهن وشيخوختهن — الملابس — النساء الفنيات — التعديلات الحديثة التى طرأت على ملابس النساء الفنيات — نساء العامة — الميزات الممنوحة للنساء — زيارات نساء الحرم — مشاغل النساء — آراؤهن فى حالتهن — استحمام النساء فى الحمامات — حكاية رواها نابليون — أخلاق العاهرات المصريات —

٤٧ — النساء المسلمات

النساء المسلمات ، وهن الشطر الاوفى من جماعة الجنس اللطيف فى القطر المصرى ، متوسطات القامة يلفتن الانظار اليهن بحسن شكلهن ويشاركن الرجال فى متانة التركيب ووثوق الاركان ، ويقاسمنهم مشاق العمل الواجب عليهم وحدهم أن يقوموا به

وكثيرا ما يعلون عليهم فى أدائه نشاطا وهمة .وعمودهن الفقرى مقوس وأعضاؤهن المختلفة مستديرة منتظمة وأيديهن وأرجلهن صغيرة شثنة وأعينهن واسعة سوداء سوادا فاحما ، ينقدح منها شرر الحياة ، تحيط بها أهداب طويلة تزيد وجوههن حسنا وتبث فيها من الحلاوة ما يستهوى الافئدة وأنوفهن صغيرة خفيفة الانبطاح وشفاهن سميكة قليلا وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البياض تخالف ببياضها لون بشرتهن الضارب الى السمرة ، تتفاوت سمرته بحسب ما اذا كن من أهالى الوجه البحرى أو أقاليم مصر الوسطى أو الوجه القبلى أو من أهالى المدن أو الريف . واثداؤهن جيدة التكون حسنة الوضع وافية صلابة تحلى صدروا عريضة ، لا قبل لها بالحيل الضارة التى يلجأ اليها السيدات الاوربيات لتحسينها .

أما مشيتهن ففى النهاية من الرقة والرشاقة والدلال ، اذا مشين فبخطوات واسعة معينة المواطىء . فى أوضاع أجسامهن ما يشعر بالجلال والفخامة وفى حركاتهن من اللطف والرشاقة والخفة ما يحرك ذكرى نساء العصور الغابرة وفى أصواتهن من العذوبة والرخامة واللين ما يستهوى السمع ويرتفع له حجاب الأذن خصوصا وأن عباراتهن فى أحاديثهن كثيرا ما تلابسها تلك العذوبة . فانهن اذا وجهن الخطاب الى أحد دعونه بقولهن « ياعينى » « ياروحى » « ياقلبى » الخ ألفاظ الرقة والعطف . واذا كان المخاطب رجلا أطلقن عليه اسم السيد أو الاخ أو غيرهما من الالفاظ التى تستروح منها رائحة الاحترام .

٤٨ — وسائل الزينة والتبرج

تهتم المصريات كثيرا بوسائل الزينة والتجمل لانهن شديدات الطموح الى الظهور فى المظهر الفاتن لعقول الرجال وقد استنبطن لاصابة هذا الغرض ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان.

منها انهن بدلا من تركهن الحواجب تنمو على طبيعتها يزججنها أى يرفقنها بالانقاص من عرضها حتى لا يبقى منها سوى خط رقيـق جدا . ومنها أنهن يكتحلن أى يصبغن باللون الاسود منابت شعر الاجفان ويستعملن لهذا الغرض مسحوقا أسود يسمونه الـكحل أى الاثمد يضعنه فى اناء صغير من الفضة أو البللور يسمى المكحلة يدخلن فيها عند الاستعمال الميل (المرود) الذى يرفعن المسحوق به الى الجفون فاذا تكحلن على هذا الوجه بدت أشفار الاجفان سوداء براقة واذا لم يسرفن من الكحل حصلن على نتيجة حسنة تبدو عيونهن بها فى أجمل ما يكون . ويضعن فى مكان يخترنه من الوجه الخال الصناعى كما يضعنه على الرقبة والنحر .

ويصبغن أظافرهن والاجزاء الناتئة من باطن سلاميات الاصابع وباطن القدمين وأطراف أصابعهما باللونين الاسـود والاحمر يحصلان عليهما بورق شجيرة الحناء فان هذا الورق اذا سحق وبل المسحوق فى المـاء تكونت منه عجينة توضع على الايدى بتقسيم فنى لا يعلمه غيرهن فاذا نزعت فى الصباح وجدت تاركة أثرا جميلا جدا والمفهوم أن الغرض من هذه العناية اظهار بياض بشرتهن وحسن لونهن .

٥٠ — الوشم أو الدق

اعتاد نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وأذقانهن وسواعدهن وأيديهن .

٥١ — خفض النساء أى (ختانهن)

تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ناهزن السابعة أو الثامنة اذ يؤخذن الى الحمام وفيه تؤدى تلك العملية

الموكلات بها بواسطة مقراض ردىء . ولست أعلم أصل هــذه العادة ولا سببها ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حــدة شهوة المرأة المصرية لا ما يعزون اليها من الاسباب الصحية فان بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجما ولا أكثر انتشارا منه فى المرأة الاوربية . دع أن الديانة الاسلامية لم تحتم حذف هذا العضــو من جسم المرأة . والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع الى استمرارها على توالى الاجيال ومر الازمان .

٥٢ ــ النســاء التركيات

النساء التركيات أجمل نساء القطر المصرى على الاطـــلاق لان أغلبهن من الجوارى الجركسيات ومنهن تتألف طائفة السرارى والحظيات فى القصور ودور الاغنياء وبشرتهن ناصعة البيـــاض وتقاطيعهن من التناسق والجمال بحيث يمكن القول بأنهن أجمــل نساء الارض طرا .

٥٣ ــ سن البلوغ عند المصريات وحملهن وشيخوختهن

تبلغ نساء مصر سن الحلم فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن ويصرن لهذا السبب أمهات فى الثانية عشرة وجــدات فى الرابعة والعشرين وجدات لوالدات فى السادسة والثلاثين وجدات لجدات فى الثامنة والاربعين . وليس من النادر فى مصر أن يرى الانسان نساء معاصرات للطبقة الخامسة من سلالتهن .

وبلوغ النساء المصريات الحلم فى تلك السن يؤدى غالبا الى ذبول زهرة شبابهن بحيث لا يبعد أن ترى مصرية فى الخامســة

والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرو المـــرأة الاوربية فى الخمسين من عمرها . وقد أجمع المؤرخون من قـــديم الزمان على سرعة قابليتها للحمل . والمصريات اللائى يحســـبن بالعقم ينظر اليهن بعين الاحتقار والامتهان ، لذا تراهن دائبات على البحث عن الوسائل الكفيلة بحملهن ودخـــــولهن فى ديوان الامهـــات .

٥٤ — لباس السيدات الغنيات

نساء العظماء وذوى الحيثيات يمتزن على سائر النساء بمـــا تجمع ملابسهن على تنوعها من أسباب الزخرف والزينة والتبرج من زركشة بالذهب والحرير والكشمير ذى الالوان الساطعـــة وما يتعلق بكل ذلك من التوشية وغيرها . وفيما يلى بيان الملابس المختلفة الخاصة بالسيدات :

قميص من حرير الموسلين أو القماش الدقيـــق السلك أو الكريب أو الانسجة الثمينة ويكون اما أبيض واما عـــلى ألوان كالوردى والبنفسجى والاصفر الباهت والازرق الســـماوى أو الاسود أحيانا . ويزركش غالبا بالحرير أو أسلاك ذهب لامعـة ويكون فى العادة واسعا جدا وعريض الاكمام وقـــد لا يهبط الى الركبة فيغطى الجزء الاعلى من الملبس الذى يتخذ من التيـــل الدقيق السلك واما من حرير الموسلين .

شنتيان عريض القماش يناط بالخصر بواسطة تكة تمـــر فى باكية بأعلاه ويربط من أسفل بالساق ويهبط من موضع ربطه سابلا الى القدمين فيكون أشبه شىء بالجونيلا .

يلك (أى ثوب) يلتصق بالقامة عند الحرقفتين فيصـــــفهما ثم ينسدل الى القدمين . وهذا الرداء مقور بحيث ان مـــــكان

النحر منه لا يغطيه ولا يثبته فى مكانه الا القميص وهو يحتــوى أزرارا من امامه تتلو بعضها بعضا من فوق الى تحت الحــزام ويكون مفتوحا من الجانبين من ابتداء الحرقفتين ، والكمــان يلاصقان الذراعين ثم يذهبان متسعين شيئا فشيئا من الـكوع ويهبطان حتى يعادلا أسفل الثوب وقد ينتهيان عند المعصمين .

حزام يحيط بالوسط وهو اما من الشال الكشميرى واما مربع من حرير الموسلين او من أى قماش آخر كالشيت بحسب تفاوت درجات اللابسات فى الثروة . فاذا كان الحزام عبارة عن مربع من الحرير فانه يطوى على اتجاه أحد القطرين ثم يوضع عــلى اسفل البطن وتبقى زاوية من زواياه خلف الجسم ثم يعاد بطرفيه الى الامام حيث يثبتان بعقدة أو مشبك . وبهذه المثابة يكــون الحزام المحيط بالجسم غير ضاغط له فى أى جزء من الاجزاء التى يلامســها .

وتلبس السيدات فوق اليلك جبة من الجوخ فى فصل الشتاء وينتهى كما هذه الجبة عند الكوع وتقور من الاعــلى ولا تلتقى حافتاها فوق الصدر . ولذا تبقى مفتوحة على الدوام وتكون اما ساذجة بسيطة واما مشغولة بالتطريز وبعض السيدات يستعضن عن الجبة بلباس آخر معروف عندهن باسم « السلطة » .

أما القلنسوة أى لباس الرأس فعبارة عن طاقية حمراء صغيرة يلف حولها على شكل العمة منديل او أكثر من قماش السكريب أو حرير الموسلين الابيض أو المرســوم أو المزركش بصــنوف الزخــرف .

وفى مقدمة الطاقية تثبت صفيحة مستديرة مكورة يبلغ طول قطرها ثلاثة ابهامات تقريبا وتسمى بالكور ونساء الطبقة الدنيــا

يتخذن هذه الصفيحة من الذهب فقط . أما نساء الاغنياء فيتخذنها كذلك مرصعة بالاحجار الكريمة .

وترسل شـــــعور القسم الامامى من الراس مجعدة بشكل الخلقـــات او الصـــدغين او ترفع الى فوق بالشكل المعــــروف « بالباندو » والنساء المصريات كنســاء أوروبا يجمعن شــعورهن خلف الراس ولكنهن بدلا من رفعــــه اياه عليه يرســـلنه الى الظهر ويقسمنه ضفائر صغيرة يختلف عددها من احدى عشــــرة ضفيرة الى خمس وثلاثين ويهتممن الاهتمام كله فى أن يكون عدد هذه الضفائر فرديا ويدخلن فى تركيبها ثلاثة خيوط خفيفة من الحرير الاسود تختلط بها قطع صغيرة من التلى أو المصوغات الذهبية وتنتهى كل ضفيرة بحلية ذهبية او بقطف من اللؤلؤ أو بقطعــــة نقد مثقوبة من الحافة . ومجموع هذه الضفائر منسقة على الوجه السالف يسمى بالصفا .

ثم ان المصوغات واللالىء والاحجار الكريمة من الماس وغيره تكثر فى زينة تلك النساء فيكون منها الاقراط فى الآذان والعقــود العديدة والقلائد فى النحور والخواتم الســـــاطعة الضـــــياء فى الاصــــابع .

والسيدات المصريات بوجه عام لا يلبسن الجوارب . ومع هذا فبشرة اقدامهن من النعومة بما لا تختلف به عن بشرة أيديهن لانهن يغسلنها غالبا بالمــاء المعطر ويعتنين بتنظيفهـــــا ويقلمن اظافرهن بالحناء . واللائى يبالغن منهن فى التأنق ويذهبن المذهب البعيد فى التبرج يحلين اصابع أقدامهن بما يحلين به أصــــــابع ايديهن من الخواتم المرصعة بالاحجار الكريمة ويلبسن فى أقدامهن حذاء يسمينه « المزد » من الجلد الاصفر او القطيفة المشــغولة بالحرير او القصب لا حافة له من الخلف ، لذلك يرى الكعبــان

ظاهرين للعيان . ويقوم المزد فى أقدام النساء مقام الجوارب لاذين يبقينه بأقدامهن أثناء ذهابهن الى الدواوين والسجاجيد . أما اذا أردن السير فى مكان آخر فانهن يلبسن من الاحذية نوعا يقال له البابوج وهو حذاء من الجلد الاصفر طرفه دقيق ملتو الى فوق . واذا أردن الخروج وضعن أرجلهن وسيقانهن فى أحذية صغيرة من الجلد الاصفر صونا للساق من وقوع النظر عليها .

ان اللباس الذى وصفته الآن خاص بداخل الحرم وهو فى بعض أجزائه على غاية الحسن . ولكن اللباس الذى تتغطى به النساء بين الجمهور يجعلهن شبيهات بالراهبات عندنا أو بعبارة اخرى بمن يلبسن الثياب المعروفة بالدمينو فى مراقصنا .

فانهن اذا أردن الخروج أفرغن على أجسامهن قميصا من الحرير الاسود يسمينه « السبلة » ثم يغطين هذا القميص بأزار واسع جدا من حرير الحبر (التافتا) ويسمينه بالحبرة . وهو يغطى الجسم كله . وهناك أزار آخر من حرير الموسلين يستر من وجه المرأة المصرية ، اذا لبسته ، كل شىء الا العينين . وحبرة المتزوجات سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات اللائى لم يتزوجن فانها بيضاء اللون ونساء الطبقة الدنيا اللائى لا يستطعن اقتناء الحبر من الاقمشة الحريرية يتخذن هذا اللباس من نسيج الخيط والقطن ذى الارضية الزرقاء ويسمينه « الملاءة » .

٥٥ — التغييرات التى أدخلت على ثياب نساء الاغنياء

ان الزى الحديث فى الثياب لم تصل عدواه الى النساء المصريات ورجالهن . ومع هذا فقد أخذ اللباس المصرى ، منذ سنوات قليلة ، يتغير شيئا فشيئا بتأثير التحسينات التى أدخلت عليه . مثال ذلك لباس الرأس عند السيدات أصبح غير مثقل

بالعمائم الكبيرة المرصعة بالجواهر . وهذا فضلا عن أن الصـــفا نفسه كاد يزول استعماله على اثر اعتياد النساء ضفر شعورهن ورفعه فوق الرأس .

ولم تعد النساء يتركن القميص فوق الشنتيان كمـــا كن يفعلن سابقا . كما ان اليلك لم يبق بطـــول اليلك الذى كان شـــائع الاستعمال قبلا اذ أصبح كماه منتهيين عند المعصـــــمين ولم يكن مقورا على الصدر بل صار يزرر فوق هذا الجزء من الجسم ويلتقى طـــــرفاه به كمـــــا فى ثيـــاب الاوربيات . أما الجبـــة فقـــد بالمرة وأصبح استعمالها مقصورا على الطاعنات فى السن وشاع استعمال الجوارب بين نساء الطبقة العليا وتركت الملابس المزركشة بالذهب فى زوايا النســـيان وحل محلها نســـيج حرير الموسلين الســـــاذج .

وبالجملة فقد تمت هذه الاصلاحات وأدخلت على اللبـــــاس المصرى فجعلته مطابقا للذوق السليم ومانعا من الاسراف فى النفقة والاسترسال فى الزخرف الذى لا معنى له .

٥٦ ــ نساء الطبقة الوسطى

يلبس نساء الطبقة الوسطى بدلا من قميص التيل قميصا من الحرير وحذاء يسمى بالمركوب يمكن أن يقال ان أقدامهن لا تشعرن فيه بضغط ما عليها .

٥٧ ــ نســـاء الطبقة الدنيـــا

اما لباس نساء العامة فأكثر من اللباس السابق ســـــذاجة لانه عبارة عن قميص واسع من القماش الازرق عريض الكمـــين

جدا يلبس فوقه قميص أبيض ولباس . وهن بوجه عام لا يحملن الاحذية فى أقدامهن .

٥٨ ــ مساكن النساء والحرم

فى منازل الاتراك قسم منفصل عن القسم الذى يسكنه الرجال أو الذى يجتمعون فيه . وهو خاص بسكنى النســاء ويسمى « الحرم » والفكرة الشائعة عن الحرم فى أوربا لا أثر لهــا من الصحة ولا نصيب من الصواب . فان هذه الكلمة مستعملة فى المعنى الذى يؤخذ من لفظ السراى أو القصر والحال أن المسلمين يطلقون كلمة الحرم ليس فقط على المسكن الذى يقطنه النســاء بل ما يحتويه هذا المسكن من الساكنات اى على المحل والحال .

وليس فى التقسيم الداخلى للحرم ما يعد خارجا عن القــواعد المألوفة فانه يحتوى ، كالمسكن الخــاص بالرجال ، ديوانا اى غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وتســتقبل الزائرات ثم حجرة لكل منهن وغرفا تابعة لهذه الحجرات لسكنى جواريهن وخدمهن وحفظ حاجاتهن المنزلية . ورب البيت يجتهــد بقدر الامكان فى تجنب أن يكون لهذه الحجرات نافذات تطل عــلى الشارع ، ولذا تستمد الضوء والهواء من نافذات تطل اما عــلى الحديقة واما على صحن البيت . والنافذات ذات حــواجز من الخشب المشغول بحسب الفنون المستظرفة فتحول دون نفــوذ الاشــعة الشمسية وأشعة أنظار الذين يحــاولون استكشاف ما وراءها .

والفكرة السائدة فى أوربا عن الحرم انه مهد للفسق والفجور وبؤرة للعهارة اتخذتها امة فاسقة لتمتعاتها الشــهوية العــديدة

والمضى فى تيار الفساد الذاهب بالعقل . وهذا هو الوهم الباطل بعينه فان الحرم مكان يسود فيه نظام أساسه الشدة والقسوة وتنتشر عليه ألوية الصيانة الدقيقة . وهذا وذاك مما يجعله أقرب فى الشبه الى الاديرة الخاصة عندنا بالنساء .

٥٩ — الهيئة التى يتألف الحرم منها

لا يذهب الوهم بالقارىء الى ان المقصود بوجود النساء فى الحرم الاستعداد لاطفاء شهوات رب البيت لان حرم الرجل الغنى يقتضى التوسع فى المعيشة والاسترسال فى المظاهر ويتطلب وجود عدد عظيم من الخادمات للقيام بحاجات الخدمة الداخلية . وتكون هاته الخادمات عادة من السودانيات ، وهذا وحده يكفى لادراك الحالة التى يصير اليها الحرم اذا جاز أن يتألف من السواد الاعظم من نسائه .

ثم ان لكل زوجة من زوجات رب البيت بلاطا صغيرا خاصا بها يتألف من جوارى مخصصات لخدمتها بالذات يؤدين حواليها الواجبات المطلوبة من الخدم فى بيت احد الرجال ، ولكل زوجة كاتبة سر وخازندارة ووصيفة ولكل منهن وظيفة موكولة الى عهدتها فمنهن من توكل اليها الخدمة على الطعام أو تدبير شئون الثياب ومنهن من تكلف بتجهيز القهوة أو الشبك وتقديمهما الى الشاربات والمدخنات الخ .

ومن بواعث الشرف للزوجة ان يكون عدد جواريها كثيرا لانها اذا خرجت صحبنها وسارت هى فى طليعتهن افتخارا بأنهن على كثرتهن من توابعها . وكان المماليك فى الزمن السابق يرون ان الفخر كل الفخر فى ان يسيروا وفى صحبتهم العدد العظيم من الخدم والحشم اظهارا لما كانوا فيه من الثروة والنعيم والصولة .

ولكل من تلك الجوارى اللائى يشغلن لدى الزوجـــات تلك الوظائف المختلفة طائفة من الخادمات فيزداد بهـذا النسق عـدد النساء فى الحرم ويتضاعف بازدياد وتضاعف عدد خادمات الزوجات وخادمات خادماتهن . ومن ثم يمكن أن يقال ان فى الحرم المؤلف من مائتى امرأة اكثر من مائة وخمسين يجهلن رب البيت . ولست فى حاجة الى التأكيد بان الحرم المؤلف من مائتى امرأة نادر جـدا فى أيامنا وان أكابر موظفى الدولة وحدهم هم الذين لا يعجـزهم الانفاق على القدر العظيم من النساء .

٦٠ ــ المعيشـــة فى الحرم

لا ترى النساء المسلمات فى بقائهن بداخل الحرم شـقاء ولا عذابا لانهن ولدن فى دائرته وبلغن فيه الى سن الشباب بدون أن يعلمن أن على وجه الارض مقرا لنوعهن يخالف هذا المقر ولا طريقة للمعيشة تناقض مادرجن عليه منها فى كنفه . فلقـد كان الحرم المعهد الاول لالعابهن فى طفولتهن وأفراحهن وآلامهن وآمالهن فتعاقب الفرح والالم والعمل والراحة فى معيشة الحرم الشـرقى هو بعينه تعاقب هذه المؤثرات على مسرح الحياة الذى فتح العرب ابوابه لنســائه .

ولقد قيل بحق ، وهو قول قاله الحكماء منذ زمن طويل ، أن العادة طبيعة ثانية . فمعيشة الحرم من هذا الوجه تنـــزل من النساء المسلمات منزلة العادة لانهن اعتدن الحركة فى حدود هذه الدائرة فلا يخطر ببالهن أن يتعدينها ولهذا وقفت أفكارهن ورغباتهن عند هذا الحد بدون تكلف وعناء لاعتبارهن اياه مما قضى به الزمن والدين والعادة . وهن اذا بلغن سن الزواج وخرجن من حرم الام الى حرم الزوج أحاطت بهن الافراح والمسرات الجـــديدة وواجهت أفئدتهن السعادة المأمولة من الحياة الجـــديدة . لان

التربية التى تربينها ام تضرم فى هذه الافئدة ضرام الشهوات المخوفة . دع أن العناية التى يلقينها من أزواجهن تجعل الطريق الموصل الى تلك السعادة سهلا ممهدا .

وكل ما يملكه المسلم من حسن ونفيس يخصصه لحرمه وهو يميل الى اعطاء مسكن نسائه رونقا من الجلال والفخامة بينما يكتفى بالمسكن البسيط لاقامته ويقتصر فى الزخرف ومظاهر الابهة على اقتناء السلاح والخيل . ومع ما استقر فى الاذهان من أن النساء المسلمات رقيق لازواجهن فان لهن كما بسائر البلاد نفوذا عظيما وبأسا شديدا . فكم من الحوادث السياسية كان الباعث عليها سرا كمينا فى الحرم وكم من سلطان رضخ لما لا يستطيع مقاومته من رجاء حظيته المكرمة فعين فى منصب الوزارة من أشارت عليه برغمه الى هذه المرتبة السامية أو رقى من شاءت ترقيته من ضباط البلاط .

فالاستفادة من سلطان النساء الحظيات ودالتهن علىأزواجهن أمر لا يحتاج الى زيادة البيان . والسيدات المسلمات ، اذا تزاورن حصلن لازواجهن أو لبعض أفراد أسرهن بلا كبير عناء فوائد جمة ومزايا جليلة يرجع الفضل فى منحها الى الزوجات صاحبات الهيمنة والسلطان على أزواجهن .

٦١ ــ امتياز النساء بالنجدة

فى زمن الحرم تحترم النساء احتراما خاصا . فالمقاتل المغلوب على أمره ، اذا لجأ الى الحرم واحتمى بحماه ، لايصيبه ضير . وفى الازمان السابقة كان مثل هذا الامتياز ممنوحا لهن بقصد الكرم والنجدة والاغاثة اذ لهن أن يحمين المحرم من توقيع الجزاء عليه والتنكيل به .

وبلغ من الامر فى عهد المماليك أن المجرم الذى يســـاق الى الاعدام كانت تعصب عيناه حتى اذا التقى فى طريقه بموكب لحرم أحد الامراء اغتنم هذه الفرصة ليلمس طرف ثوب احدى النســاء السائرات فيه فان هذه الحركة التى يقصد بها الاستغاثة كانت تؤدى حتما الى العفو عنه واخلاء سبيله .

٦٢ — زيارة سيدات الحرم

لا تستقبل السيدات المسلمات من الرجال احدا غير الزوج فاذا اتفق ودعى طبيب الى الحرم عنى بتغطية المريضة بإزارها أو بأحد الاغطية الخاصة بها وحضر العيادة أحد الخصيان . وفيما عدا هذا فالحرم مفتوح على مصراعيه لجميع السيدات على اختلاف عقائدهن وأجناسهن واذا وقف الناس على كثير من تفاصــيل الحياة بداخل الحرم وأسرارها فانما جاء العلم بها عن طــريق المسيحيات واليهوديات اللائى تختلفن الى الحرم الاسلامى .

وتستغرق زيارة السيدات احيانا أياما متعاقبة . ومتى كان بالحرم سيدة أجنبية فان رب البيت يرى من أخص واجبــاته عدم الدخول فيه مهما طال أمد زيارتها به .

٦٣ — اشـــغال النساء

لا تتلقى النســاء المسلمات شيئا ما من العقلية لاعتقــاد المسلمين أن المرأة ، من جهة العقل والفهم ، احط درجـــة من الرجل . ومفهوم أن الدين الاسلامى لم يفرض عليهن بسبب هذا الانحطاط رعاية الفروض الدينية المحضة رعاية كاملة . وذهب بعض العلماء الى الشك فى أن لهن روحا . وهن يجهلن القــراءة والكتابة ولكنهن يحاولن بعض الاعمال كالتطريز والنسيج والوشى ويزاولن الخدمة البيتية بحذافيرها ويدخلن السرور على أنفسهن فى

اوقات فراغهن بالالعاب المختلفة وقد يستحضرن الى حجـــراتهن المغنيات والعوالم للتسلى بهن . وسنتكلم فى الفصول الآتيـــــة على ما يقمن به من مجالى السرور والافراح من آن الى آن .

أما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد . وكثيرا ما يتفق أن يبعث ازواجهن بهن الى الاسواق لبيع الحاصـــلات المختلفة أو غيرها .

٦٤ ــ رأى النساء فى حالتهن

ما سمعت السيدات المسلمات ان السيدات الاوربيات يرثين لحالهن لـــا هن فيه من الاحتجاب وعدم البروز للجمهور الا وقد اعتراهن الدهش وقابلوا بالملاحظات المرة القارصةعواطفالرحمة والحنان التى لم يكلفن احدا بالاعراب عنها لاجلهن . فان سيداتنا اذا سألتهن عن فائدة التزين والتجمل اذا كن مرغمات على سترهما عن الانظار فضلا عن احتجابهن وراء الستار اجبن : « انا اذا تزينا وتجملنا فانما لاجل سيدنا ومولانا نفعـــل ذلك . أما أنتن فلغير أزواجكن من الرجال والنساء تتزين وتتجملن ؛ » .

واذا قال لهن أحد ان حالتهن تستدعى الشفقة لعجـــزهن عن الخروج والذهاب حيث يشأن أجبن على هذا العطف بقولهن : « انكن لاسوأ حالا منا لاننا اذا شئنا أن نشترى شــــيئا جاء التاجر الى بابنا وعرض بضاعته علينا أما أنتن فلا بد لكن من الذهاب الى حانوته » الخ .

٦٥ ــ عادة الاستحمام فى الحمامات

تذهب النساء المسلمات غالبا الى الحمامات وحمامات البخار هذه احد اجتماعاتهن المألوفة يأنسن فيه بعضهن ببعض ويروين

على مسامع بعضهن نتفا من حوادث الحياة المنـــزلية فيما يتعلق بأشخاصهن أو بما يتخذنه من التدابير للزواج .

٦٦ ــ حكاية نابليون بونابرته

أورد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى ابرازها فى هذا المقام لـــا احتوته من الدليل عـــلى أن اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحـــركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء وكانت لجميع أهـــــل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثـــال . قـــال :

« تزوج الجنرال منو بامرأة من رشيد وعاملها معاملةالسيدات الفرنسيات اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها الى غرفة الطعام ويتحرى لها أوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمـــــة واشهاها . وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيهـــا بادر بأخذه واعادته الى مكانه . فلما روت تلك المرأة هذه الامور على صاحباتها فى أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النســوة بارقة الامل فى تغير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضا قدمنه الى السلطان الكبير ــ بونابرته ــ ليحمل ازواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل منو زوجته الرشيدية به » .

٦٧ ــ طباع النساء وأخلاقهن

يتعلم النســاء المصريات فيما يتلقينه من التربيـــــة عن أهلهن الطاعة والاحترام . واذ كن لا رابطة تربطهن بالرجال فمن النادر أن يستطعن التفرغ للتدابير والحيل الغرامية . وبهذه المثابة كان شرف الازواج بالشرق فى مأمن آمن منه فى الغرب . ولا بد لنا من

القول هنا بأن النساء المصريات ، مع محافظتهن على فضيلة العفاف واستمساكهن بعروتها الوثقى الى وقت زواجهن حيث يلزمن باقامة الدليل القاطع على بكورتهن ، لا يلبثن أن يصرن بعد زواجهن اقل حرصا على كرامتهن . ذلك لان كرامة النساء أى العفة لم تكن مرتكزة فى الشرق على قواعد وطيدة من الاخلاق فاذا وقين أنفسهن شر العار ، فما ذلك الا لخشيتهن بأس ازواجهن لا لاحترامهن أنفسهن أو حرصهن على كرامتهن . وهذا هو السبب الذى جعل الازواج يضيقون عليهن الخناق ويأخذون عليهن الاطراف بالدأب على مراقبتهن علما منهم بأن صيانة شرفهم لا تتأتى الا عن طريق اليقظة والانتباه فى المراقبة والحكمة فى التدابير والاحتياطات التى تتخذ لذلك .

وميل النساء المصرات شديد الى المضاجعة لانهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة . فلا جرم اذا رغبن فى الكسل وطبعن على اللين والتفنج وأن لا يكون لهن هم سوى استهواء أزواجهن الى الاعجاب بهن . ومنهن من يعكفن على شئون البيت ولكن ادارة هذه الشئون فى الشرق أقل صعوبة منها بكثير فى أوربا .

وليس بالامكان العثور فى مصر على امرأة متزوجة تعيش عيش الخليلة مع رجل آخر غير زوجها .

٦٨ ـ العاهرات

تحرم الديانة الاسلامية - كالديانتين الموسوية والعيسوية ، العهارة تحريما قاطعا مانعا ، ولذا كان وجودها فى الديار العثمانية نادرا جدا ولكن مصر التى خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة ، ولا سيما فى ارتخاء حبل الاخلاق ،

تجاوزت الحد فلم تنتصر على قبول العهارة فى اجازتها بل كانت تجبى من العاهرات مبلغا جسيما يدفع سنويا لخزانة حكومتها .وكانت طائفة العاهرات فيها الى عهد قريب منا طائفة معروفة ذات رءوس يهيمنون عليها وأنظمة خاصة تسير على منهاجها . وقد عـــدلت الحكومة فى آخر الامر عن جباية ذلك المـــال منها برسم خزينتهـــا بل وقررت منعها ازالة لوصمة وجودها وعار الاعتراف بها .

نعم لا يزال يوجد حتى الآن عدد عظيم من النساء العوميات الا أنهن يزاولن حرفتهن الساقطة الدنيئة سرا لا جهرا كما كان الامر قبلا . ومع أن قرار الحكومة بصددها يرمى الى غـــرض أدبى أخلاقى بحت فما نذكره هنا مع مزيد الاسف انه أفضى الى اتساع نقيصة أشد خزيا وعارا من نقيصة العهر الا وهى اللواط. وليس من المستحيل تجاه تفاقم هذه المخزاة الجديدة أن تنتبـــه الحـــكومة لها وتدرأ سوء مغبتها ، بعد أن يستقر فى خلدها أن غض النظر عنها مفض حتما الى تجويز العمارة والرضا بوجودها.

والذى أعتقده أن هذه البلية الاجتماعية يعززها فى القطـــر المصرى العبث بالطلاق وارخاء العنان للازواج فى تطليق زوجاتهم أكثر مما يعززها المزاج الخاص الذى يحمل المصريات على الافراط فى قضاء شهواتهن . فان نظرة واحدة فى أحوال العاهرات تكفى للاقناع بأنهن بوجه عام من النساء المطلقـــات اللائى أنفن ذل المعيشة الزوجية وأبين ضيمها أو اللائى لم يستطعن بعد طلاقهن التزوج ثانيا فلم يجدن للارتزاق بابا مفتوحا غير المضى فى تيـــار العهر والفسوق .

٦٩ ــ الخصـــيان

يجدر بنا وقد بلغنا الى هذه النقطة من موضوعنا أن نذكـــر شيئا عن الخصيان الموكول اليهم حراسة الحرم ومراقبته . فان

الخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء باعتبار انهم الحراس الذين أقامهم الازواج على عفة أزواجهن . وليس ببعيد أن يراهم الانسان فى الوقت نفسه وقد اكتسبوا ثقة الازواج والزوجات للتغرير بالفريقين وادخال الغش عليهما .

واستخدام الخصيان يرجع الى الازمان القديمة فى التاريخ فقد روى أن الملكة سميراميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا . واحتفظ اليونان فى عهد دولتهم الاخيرة التى كان مقرها القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان وكان أحدهم وهو الخصى (نرسيس) أكبر قوادهم بعد (بليزير) ورفع من شأنهم زمنا فى البلاد الايطالية .

ومع أن الشريعة الاسلامية تحرم الخصى (الجب) فقد عكف المسلمون عليه وبالغوا فيه بحيث يخيل للانسان أن هذه العادة الوحشية ملازمة لتعدد الزوجات ملازمة لا مفر منها .

وفى توليتى آسيا واوربا لا يفوز بامتياز الحصول على الخصيان واقتنائهم غير العظماء والاسرياء . أما فى افريقية ، ولا سيما فى القطر المصرى ، فانهم أكثر انتشارا لسهولة الحصول فيهما على العبيد اللائقين لعملية الجب .

٧٠ — معاهد الجب

عملية الجب لا تجرى الآن فى غير القطر المصرى فهذا القطر أصبح المورد التى تستورد منه الخصيان برسم حرم العظماء والاسرياء فى كل مكان . وصناعة الجب فيه رائجة رابحة يزيد فى ربحها شدة الاقبال عليها وغلاء ثمن التعساء الذين تجرى عليهم تلك العملية القاسية .

ومدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتان من مدائن القطر المصرى اللتان تباشر تلك العملية الشائنة فيهما . ومن كان يخطر بباله أن الموكلين بمباشرتها جماعة من المسيحيين وأنهم من رجال الاكليروس القبطى ؟ هؤلاء الناس الذى أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية بالانسانية موضوع احتقار السكان فى تينك المدينتين لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياء من الجريمة فى حق المروءة والاثم الغليظ ضد الانسانية .

وقرية زاوية الدير القريبة من أسيوط عاصمة السفاكين السفاحين الذين يقومون بعملية الجب . وهم يرتكبون جرمها الشنيع على نحو ثلثمائة شخص فى كل عام ويختارون هذه الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات الى تسع وتأتى بهم قوافل الجلابة من سنار ودارفور . ويباع هؤلاء التعساء بحسب ما يكون من حظهم فى الحياة بعد اجراء العملية عليهم وبحسب المزايا المتوافرة فيهم من ١٥٠٠ قرش الى ٣٠٠٠ قرش .

٧.١ — عملية الجب

تعمل هذه العملية عادة فى فصل الخريف باعتبار انه أوفق فصول السنة لنجاحها . ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده بل يبترون بالموسى جميع الاجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول وبعد القاء الزيت يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى المعذب على هذا المثال فى الارض الى ما فوق البطن وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعا وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من طين الابليز والزيت.

٧٢ — تعظيم الخصيان

ان نحو الربع من الغلمان المساكين الذين تجرى عليهم هذه العملية الشنعاء لا يعيشون بعدها . أما الباقون فيقضون حياتهم فى الضعف والآلام . نعم ان المسلمين يحوطونهم بكل ما هو فى مستطاع من الاحترام والرعاية والتكريم حتى أن كبير الخصيان فى الاستانة العلية مثلا يعد من أعاظم رجال الحاشـــية السلطانية وأن السلطان محمود رفع أحد خصيانه الى مرتبة الباشوية وعهد اليه قيادة جيوش الدولة ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها أن لا آية من آيات الشرف والترفيع ولا شارة من شارات الحظوة والفــوز بالرعاية تعدل فقدان الرجل صفته الخاصة به وعلامته المميزة له عـلى غيره .

٣ — العلامات المميزة للخصيان

بوجه عام يعرف الخصى بمظهره الخارجى وهيئة جثمانه . فانه يكون أمرد سليب اللحية والشاربين وبجسمه ميل الى السمن وفى صوته خنوثة . وتبدو عليه فيما عدا هذه الصفات ، علامات التكبر فى كربة ووجوم وتشاهد فيه نزعة الى الاذى والخــوف وسرعة الغضب . وهى نتائج طبيعية لـمـا يشعر به من سقوط شأنه وانحطاط مكانته بزوال أخص صفة للرجولة عنه . ويميــل عادة الى مظاهر الصلاح والتقوى اذ يرى فى القيام بفروض الدين على وجه التشدد تعويضا له عما أصابه من النقص فى جثمانه . ومن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون اليهن بل ان فيهم من يتزوجون بهن .

٧٤ — منــع الجب

اذا كانت ثمة جريمة نحسب أن الهيئة الاجتماعية بأسرها قد اشتركت فى ارتكابها وأن لا جريمة تفوقها فظاعة وشناعة فانمــا هى عادة اتخاذ الخصيان وبقاء هذه العادة حتى الآن .

ولقد حمل كبار الفلاســـفة والمفـكرين وبعض رجـــال الحكومات العاملين فى أيامنا هذه الحملة الشعواء على الاسترقاق وها نحن أولاء نرى أوربا تسير سيرا حثيثا فى الطـــريق المؤدى الى الغائه ولكن عادة اتخاذ الخصيان فضيحة كبرى للطبيعـــة وهتك مخز لاستار النواميس الطبيعية والخلقية . والغـريب مـع هذا أننى لا أعلم أن بين الشعوب التى تتولى زعامة الحضــارة العصرية من استجمعوا قواتهم وجهودهم لمكافحة عادة اتخـــاذ الخصـــيان .

وتداخل أوربا اليوم فى شئون الدولة العثمانية ذلك التــداخل الذى أصابها ببالغ الضرر من جراء ضغطه عليها بأثقال المصالح السياسية والمرافق الاقتصادية المختلفة كان يمكن أن يكون نافعا ومجديا وجديرا بثناء الانسانية وشكرها لو كان الغرض منـــه ادخال الاصلاحات المطابقة لروح الحضارة والمدنية لا التى يقصد بها تحقيق تلك الاغراض السياسية .

وليس من بين هذه الاصلاحات ما هو أوجب للحمد والثنــاء كمنع الجب واتخاذ الخصيان . وأتمنى صونا لكرامةأوربا وشرفها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها فى الحصول على هذا الالغاء من سلطان تركيا ووالى مصر . وانى لموقن أنه يكفى لتحقيق هــذه الامنية الشريفة أن تعرب تلك الحكومات لهما عن مقاصـــدها الخيرية نحو الانسانية المعذبة لترى منهما الاقبال السريع عــلى اجابة مطالبها وها هو محمد على المعروف بالمسارعة الى اتبــاع

النصائح النافعة والمشورات النبيلة لن يتوانى فى العمل بهــــذه النصائح وبذا لا تصبح مصر ميدانا لجريمة لا يسع هذا لجيل بعد الآن أن يتهاون فى أمرها أو يتغاضى عنها .

٦

الزواج وتعدد الزوجات والطلاق

الزواج ــ تعدد الزوجات فى مصر ــ الطلاق ــ أسباب تعدد الزوجات والطلاق فى الشرق ــ تأثيرهما .

٧٥ ــ الطـــــــلاق

فى بلد تجيز شريعته ، بلا قيد ، تعدد الزوجات والطـــلاق لا يمكن أن يكون الزواج عظيم الخطر ، كلا ولا من المســـائل التى يتوقف عليها مستقبل الرجل والمرأة فى الحياة كما نراه نحن. ففى الشرق لا يستيطر الحب على الروابط بين الزوجـــين . لان احتجاب المرأة فى الحرم يحول دون معرفة الخطيب خطيبتــه التى ستربطه واياها عقدة الزواج ، ولو بالنظر . بل غالبـــا ما يتم الاتفاق على تزويج اثنين من بعضهما بين أهليهما وهما لم يخــرجا بعد من سن الطفولة ، فاذا ما بلغا سن الحلم قلما يستشـــــار أحدهما فى أمر زواجه بالآخر فكان من المنتظر ، فى هذه الحالة ، ان يتجلى الزفاف عن حبوط أمل وخيبة رجاء لا يجد الزوج التعس للخلاص من ورطتهما غير حل عقدة الزواج بالطلاق . وفى هــذا العهد بدا من جانب الاهل جنوح الى تلطيف هذه الطريقة المنافية للصواب والعقل من وجوه كثيرة اذ اخذوا يعدلون الآن عن خطة التشدد والتعسف ، لا الى جهة الرضا بأن يرى الخاطب المرأة التى اختطبها أو يحدثها بل من جهة أنهم يعنون باستقصاء أحوال الخطيبين سنا وخلقا وخلقا .

وعندما يشرع فى الخطبة تذهب أم الخاطب فى لفيف من أهلها وقرابتها الى بيت المخطوبة برسم الزيارة فاذا وقع نظرهم عليها حفظوا ما بدا لهم من صفاتها جمالا ودمامة فضيلة ورذيلة حتى اذا عادوا اليه سردوا عليه ما ثبت عندهم من أمرها فاما أن يقبل على الزواج بها واما أن يعدل عنه .

وفى الشرق لا يمهر النساء الرجال بل الرجال هم الذين يقدمون اليها الصداق . وعند أصحاب اليسار والغنى يبلغ الصداق عادة عشرة أكياس (أى أكثر من ألف فرنك ومائتى فرنك) وهو اقل من ذلك للايامى والمطلقات .

٧٦ — تعدد الزوجات فى مصر

رأينا فيما تقدم أن الديانة الاسلامية تبيح التزوج بأربع نساء وما لا عد له مما تملك اليمين . ومعنى هذا أن الاسلام يقرر تعدد الزوجات ويدعو اليه . ومن الخطأ أن يظن أحد أن اباحة تعدد الزوجات معمول بها من جميع الناس فان السواد الاعظم من المصريين يقتصرون على زوجة واحدة فقط وانه ليتعذر عليهم أن يعدوا هذا القدر ما لم يكن عدد النساء فى مصر يتجاوز بكثير عددالرجال .

والحقيقة أن عدد النساء فى هذا القطر يكاد يعدل عدد الرجال ، وهو ما يؤخذ منه انحصار تعدد الزوجات فيه ضمن دائرة ضيقة جدا لا سيما وأن الاكثار من الزوجات يستدعى من النفقات الطائلة مالا قبل لأحد به ولا طاقة له عليه الا اذا كان من أصحاب الثروات الواسعة ، وهو ما جعل عادة تعدد الزوجات مقتصرةعلى أرباب الغنى وأصحاب المظاهر والحيثيات لا تتجاوزهم الى غيرهم . ويتفق أن يكون للرجل من عامةالشعب

زوجتان أو أكثر ولكنهن ينفقن فى هذه الحالة على أنفسهن من صفوة أموالهن . ومن المسلم به أن متوسط عدد الزواج الذى تتعدد فيه الزوجات بالقطر المصرى لا يتجاوز خمسة فى المائة من مجموعه .

٧٧ — الطلاق

من الانظمة المرتبطة بتعدد الزوجات بروابط عديدة الطلاق . وقد بلغ من الشيوع مبلغا فاضحا مخزيا . لانه إذا كان تعدد الطلاق يبيح للرجل الامساك بقدر ما يريد من الزوجات فانه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهن على شريطة أن يخلفن بعضهن البعض فيتعاقب استمتاعه بهن بتعاقب الاقتران وتواليه. وتعدد الزوجات والطلاق متحدان فى طبيعتهما لانهما ناشئان عن أسباب بعينها ولا بد طبعا أن يفضيا الى نتائج متشابهة ويعقبها آثار متجانسة .

ولقد سبق أن قلت اننى لا أستبعد وجود مسلمين فى القطر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ولكن هذا من النوادر التى لا حكم لها . والمألوف المعروف وجود من تزوجوا وطلقوا عشر زوجات أو اثنتى عشرة زوجة أو عشرين ، ويخالف الاتراك المصريين فى ذلك فانهم يحرصون على عقدة الزواج ويصونونها من الانحلال أكثر من هؤلاء . وتعدد الزوجات لا يلجأ اليه كما لا يلجأ عندهم الى الطلاق الا اذا كانا الوسيلة الوحيدة للخلاص من ضيق شديد .

٧٨ — أسباب تعدد الزوجات والطلاق

تمتاز الروابط التى تصل الرجل بالمرأة فى الشرق بصفات خاصة بها ومناقضة على خط مستقيم للصفات المميزة فى البلاد

الاوربية . ولقد أمعن الفلاسفة النظر فى هـــذا التباين واقتفى اثرهم فى ذلك كتاب الصحف والباحثون فى الشئون الفســيولوجية وذهبوا فى طرق الآراء متخبطين .

أما فى الغرب فقد حافظت الشعوب جميعا من الاغريق الى الغولو والحرمان الى الرومان المحافظة التامة على وحدة الزوجة وأما فى آسيا فقد أباحت شعوبها أجمعين من الفرس الى الاتراك للرجل الاقتران بعدة زوجات .

ويخالف الاسلام النصرانية فى تعـــدد الزوجات فان الدين المسيحى رسم للحضارة الاوربية الخطة الاجتماعية التى نشـــاهد اليوم آثارها العجيبة ونتائجها الطيبة اذ قرر وحدة الزوجة وعدم انفصام عروة الزواج وأصغى الغرب كله لصوت التعاليم المسيحية فى هذا الموضوع وسار على منهاجها فلم يحد عنه . بخـــلاف الديانة المحمدية فقد أباحت تعدد الزوجات وقضت به على الجنس اللطيف أن يعتبر نفسه منحطا درجات عن مرتبة الرجال وســار شطر كبير من شعوب آسيا على النهج الذى انتهجه الاســـلام فى الزواج .

ومفهوم أن روابط الرجل بالمرأة لكبيرة الاهمية عظيمة الخطر من الوجهة الاجتماعية وأنها سريعة التأثير فى الاسرة وبالتالى فى الهيئة الاجتماعية بأسرها . فمن المفيد والحالة هـذه استقصاء الاسباب التى تجعل تلك الروابط خاضعة لعوامل الاختلاف المترتب على اختلاف البلدان وتباين الشعوب التى تسكنها .

والذى نعتقد به فى هذا الموضوع أن السبب الاصلى لتعـدد الزوجات جثمانى مادى بحت ؛ فقد لاحظ العـــلامة الفيلسوف

(مونتسيكو) أن بين النوعين الذكر والانثى فى البلاد الحارة اختلافا طبيعيا وتفاوتا عظيما ، قال : « ان النساء فيها يبلغن الحلم فى الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرهن ، وهومايجعل الطفولة والزواج يسيران فيها يدا بيد فتصبح المرأة التى تزوجت فى احدى تلك السنوات عجوزا شمطاء ولن يتفق اقتران العقل عندها بالجمال . فانه اذا تطلب الجمال النفوذ والسلطان أباهما عليه العقل ، واذا استطاع العقل الفوز بهما يكون الجمال قد تلاشت دولته وذهبت صولته . ومن ثم كان الواجب بقاء المرأة فى حكم أحد وتبعيته — لان العقل لا يجعل لها فى هرمها سلطانا ونفوذا بخل الجمال عليها بهما وهى فى غض الشباب وابان الحسن . فمن بسائط الامور اذا أن يترك الرجل امرأته ليتخذ بديلا عنها لا سيما اذا لم يكن فى الدين مانع يحول دون ذلك وأن ينشأ عن فعله تعدد الزوجات » .

واعتقادى أن ذلك الفكر العظيم قد كشف بثاقب نظره وصائب رأيه عن حقيقة سبب تعدد الزوجات وشيوع الطلاق فى الشرق وعن الانحطاط الذى تدلت المرأة اليه تجاه الرجل من جرائهما .

٧٩ — تأثير تعدد الزوجات

ومع أن هذا السبب مادى فى أصله ومنشئه فقد أفضى الى نتائج أدبية وسياسية فى الدرجة القصوى من الخطورة . فان اليه ينبغى اسناد الانحطاط الذى تنكست فيه شعوب الشرق منذ آلاف السنين . اذ غير منكور أن تعدد الزوجات هو الذى شل حركة هذه الشعوب وأوقفها عن التقدم الى الامام بما لابسها من الطبائع البهيمية وغيرها من العلامات المنذرة بهرم الامم والشعوب التى القاها تعدد الزوجات مقهورة مدحورة تحت أقدام الفاتحين والمغيرين من الغربيين .

فتعدد الزوجات هو الذى جر عليها بغى أوربا التى تستطيع تلك الامم فى ظل نفوذها أن تقوم من رقدتها الطويلة وتنهض من عثرتها التى ما برحت منتكسة فيها حتى الآن .

ولقد شرح العلامة الاستاذ (لالمان) العواقب الوخيمة لتعدد الزوجات فيما — وصفه به من ذلك الوصف البالغ الذى أعتقد أن يرضى قرائى اطلاعى اياهم عليه . قال : « منذ الحقب الخالية وقف الشرق والغرب متقابلين فكانت أول واقعة اشتبكا فيها حرب تروادة التى شب ضرامها على أثر اختطاف أجبن أبناء الملك (بريام) لهيلانة الجميلة وتلت هذه الحرب حركة أفضت بالفرس الى الاغارة على اليونان ثم حركة رد فعل القتباليونان فى أحضان آسيا وأدت الى انسحاب العشرة الآلاف وحملة الاسكندر الاكبر . ولما أخنى الدهر على هذه الدولة حلت محلها الدولة الرومانية التى مدت نطاق فتوحاتها بحيث تناول القارتين الافريقية والاسيوية .

« وفى خلال هذا الصراع الشديد بين الامم لاح حادث تغلب على سائر الحوادث وفاق عليها فوقا عظيما ، الا وهو سقوط طوائف من الاحرار فى أيدى شيع وأرهاط من العبيد والارقاء يقودهم لفيف من المستبدين المخنثين .

فهذه الصفات المميزة التى أشار اليها جميع المؤلفين فى الازمان القديمة لا تزال باقية الى الآن بدون ان يطرأ عليها تغيير

وبأى سبب يمكن تعليل قوة استمرار تلك المميزات ؟ أبالجنس ؟ ولكن الاتراك والمصريين والفرس الخ يشاركوننا فى وحدة الاصل القوقازى . أم بتأثير الاقليم والوسط ؟ ولكن الانكليز ظلوا حافظين لما عرفو به من الهمة والنشاط والدأب

على العمل وسط أمم الهند وشعوبها ؛ والى هذه الخصال وحدها يرجع فضل نجاحهم المدهش فى فتح البلاد الهندية المترامية الاطراف . أم بالانظمة السياسية والدينية ؟ ولكن يجدر بنا أن لا ننسى أنها من عمل الانسان لنفسه . على أن أنماط الحكومة فى القطرين والعقائد فيهما قد تناولها التغيير بدون أن يطرأ تغيير ما على جنسى الامتين الهندية والانكليزية .

ولم يبق فى الشرق والغرب سوى واحد لم يطرأ عليه فيهما تغيير الا وهو الزواج . فان تعدد الزوجات فى الشرق كله ظل من الانظمة المقررة والقواعد التى لم ينقض بناؤها كما أن وحدة الزوجة حتى وقتنا هذا هو الغاية التى ينشدها الغربيون.

وانه ليكفى أن يرجع الانسان البصر كرة فى الضعف الجثمانى والنفسى الذى ينتاب الناس لافراطهم فى الملاذ الشهوية كى يسهل عليه تعليل تأثير الانظمة المتباينة فى كيان أمتين مختلفتين .وبدهى أن هذا الاعتراف لم يكن عندنا بالامر النادر المثال ، الا أن قضاء الوطر بواسطته يقف بالمسرف فى الشهوات عند حد الشبع منها فلا يلبث أن يزهدها وينصرف الى التماس التمتع العقلى والنفسى فيما يوثقه بيده من روابط الزواج وعراه .

والتنقل فى الملذات عند الشرقيين يحرك الراكد من شهواتهم ويوقظ النائم من مشاعرهم ، ولذا كانت الملاذ الجثمانية عندهم الكل فى الكل . ومن عاداتهم لهذا السبب أن لا تقع أعينهم على أوربى الا ويعتقدون أنه طبيب فيتهافتون عليه لاستكناه ما يظنونه متوافرا عنده من الاسرار التى لو اطلعوا عليها وأتيح لهم العمل بها لاستطاعوا مضاعفة ملذاتهم باطالة أمد الاستشعار بها . وما التجارة النافقة بينهم لهذا السبب الا تجارة العطارة والعقاقير

التى تجهز بها المركبات المفيدة للباءة على اختلاف وجوهها .وهذه المركبات تباع نهارا جهارا فى الاسواق ولهم حوانيت خاصة لا ينكر اصحابها أن بضاعتهم الغرض منها ما ذكرناه كما لو أن شيئا من ذلك غير شاذ عن الطبيعة ولا مخالف لمقتضى الادب فى نظر تلك الشعوب التى غلبتها الافكار الشهوية على أمرها .

نعم لا بد لمن يطلب اللذة من وراء تعدد الزوجات واتخاذ حرم خاص بهن أن يكون ذا بسطة فى الغنى والجاه . وهذه القدرة لا تتاح عادة الا لاصحاب النفوذ والشوكة الذين اعتادوا غصب أموال الناس بغير الحق ليتعهدوا شئون حرمهم بما تستدعيه من الكلف الفادحة ، ولكن انصراف بعضهم الى اتخاذ حرم له على النسق المتقدم يبث فى أفراد العامة الشوق الى الاقتداء به والمضى فى تياره كل بحسب مقدرته فى الثروة والجاه .

« ثم انه لابد من الخصيان حيث تمس الحاجة الى حراسة النساء وصونهن من الانفس الطامحة والأعين الخائنة والأيدى العابثة . ولا عجب فان الحذر يزداد حيث تتوافر دواعى الخوف والمثلة بالناس تنتهى الى ما تستبطه الغيره على المرأة من صنوف التعذيب التى لاتقع الا فى خواطر الهمج والمتوحشين . حقا ان الاسترقاق لمن أفظع ماخطر ببال البشر ولكنه لايذكر اذا قيس بالجريمة الشنعاء بل بالجبانة السافلة التى تضحى الانسانية الضعيفة فى سبيلها ، نريد بها جريمة جب الرجال للتمكن من اقامتهم حراسا على الحريم . وليس بمنكر أن أحقر الارقاء وأسفلهم مكانة ربما صار يوما ما من فطاحل الرجال ومشاهير الابطال المشار اليهم بالبنان . ولكنه مهما يبلغ من العزة وشرائف الرتب يفضل على اقبال الزمان عليه بمظاهر الثروة والجاه حظ عبد الرق وأن تمرغ فى حماة الفقر والجهل وتنكس فى حضيض الذل والهوان .

« وياليت الامر كان مقتصرا علـى ماذكرناه الآن فأن امتلاك الرجل بسبب كونه ثريا أو غنيا العدد العظيم من النساء امتلاكا مجردا من كل أثر لفائدة او مصلحة له يفضى حتما الى قلة عدد النساء بين الجمهور فيؤدى هذا الامر ، كما هو المشاهد فى بلاد المشرق ، الى انتشار اللواطة وشيوعها وقد أدى ذلك الى هذه العناية اذ اللواطة فاشية الآن بين الشرقيين وهم يقبلون عليها بغير حياء ولا رادع . فكيف ينتظر منهم وقد تمرغوا فى قذر هذه المفاسد أن يكون فى نفوسهم أثر من الهمة أو ميل الى التصون عن الدنايا أو الإعتصام بالاخلاق العالية والشيم الكريمة .

« ولما كانت المرأة فى نظر الشرقى بضاعة مزجاة يباح التصرف فيها بحكم مشيئته فليس الا أن ينظر اليها بعين الاحتقار والمقت ويعتبرها أحط منزلة منه بل تحفة يلتمس منها الشباب الغض والملامح المحبوبة والجمال الجثمانى دون ما يناقض فى هذه المقابح من الشيم الكريمة والفضائل العالية والطباع المستقيمة .

وهذا الانحطاط الذى أوجده علـى توالى الازمان اعتياد الرضوخ لدواعى الاسترقاق والاستعباد أفضى بالمرأة الى أوخم العواقب . وأى تربية نفسية يمكن أن تعطى للابناء فى طفولتهم الاولى وتلك الايدى تتصرف فيهم بل أى احترام من ولد لوالدته اذا وقع نظره عليها وأحقر الخصيان يتولى تأديبها أو معاقبتها بالضرب بأمر من والده ؟ ومن أين للمحبة أن تتوثق عراها بين الاخوة من آمهات مختلفات تكمن فى نفوسهن البغضاء بعضهن لبعض ؟ واذ كان البيت القائم على هذا الاساس محروما من الفضائل البيتية فهل يرجى أن تقوم لهذه الفضائل وغيرها فى الاسرة قائمة يوما ما ؟ .

« مما تقدم يبدو جليا أن تعدد الزوجات يتناول تأثيره الضار الحالة النفسية لاصحاب الحرم والقصور ويتعداها الى طبقات الامة وجميع الذين يهيئهم الاستعداد الطبعى الى التهيج الذى ينبه الافراط فى الملاذ الشهوية . وهؤلاء يعلون على غيرهم فى الحقيقة علوا كبيرا من كل وجه اذ اليهم يرجع النفوذ والحكم وبيدهم زمام الهمة والنشاط وفى قدرتهم الاحتفاظ بشىء من حياة الهيئة الاجتماعية الشرقية . واذا كنا قد اقتصرنا على ذكرهم فى هذا البحث فما هو الا لما فيه من الدلالة البينة على حالة الطبقات الاخرى — تلك حالة الشرق ! » .

ما كان فى قدرة حكيم أن يستقصى العواقب السيئة لتعدد الزوجات ويصورها تصويرا محسوسا بمثل ما صورها ذلك الكاتب بعباراته المتينة المعززة بالحق فيما نقلناه الان عنه ، والمسلم به بداهة وعقلا أن تلك العادة المرتكزة القواعد على أسس وطيدة من التقاليد العتيقة فى مملكة مترامية الاطراف الى أبعد مدى، المعززة الجانب من البيئة ، المؤيدة الركن بالقانون الشرعى ليتعذر بل ليستحيل ابطالا فى زمن قصير . واذا كان لقوة أن تأتى عليها وتمحوها من عالم الوجود فانما هى قوة انبثاث أفكارنا وانتشار تقاليدنا فى الشرق لانها وحدها الكفيلة برفع شأن أممه الى المقام الاسنى .

الاطفال

العناية الاولى بهم — تربيتهم

٨٠ — العناية الاولى بهم

الغرض الاول من الزواج فى مصر استبقاء النسل وتخليد الذكر ، لذا كان مولد الابناء من الحوادث الباعثة فى الاسرة على

الســـــرور والابتهـــاج . وعقم المرأة فى نظر المصريين غضب من الله عليها وباعث من بواعث نفور الزوج منها وعدم رضائه عنها . وبالجملة فاحترام المرأة عندهـــم يقاس بحسب قابليتهـــا للحمل والوضع قلة وكثرة . والرأى المجمع عليه أن الرجل المستقيم لا يليق به أن يطلق امرأته لكونهـــا لم تعقب منه سوى غـــلام واحد ولاسيما اذا بقى هذا الغلام على قيد الحياة .

ولو لم يكن حب الام لبنيها فى مصر كما فى غـــيرها من البلدان أطهر ما بثته الطبيعـــــة فى فؤادها من العـــــواطف لـــكان من مصلحتها أن تتعهد هذا الحب بما ينميه ويقويه . فان الامهـــات يبدين الكثير من الرفق نحـــو أبنائهن ويتجـــاوزن عن هفواتهـــم ويحطنهم بوســـــائل العناية والرعاية بل ويقمن على ارضـــاعهم بأنفسهم . والشريعة المحمدية تبيح لهن ارضاعهم حـــولين كاملين ما لم يأذن لهن أزواجهن بالفطامة قبل هذه السن . والقـــاعدة المألوفة أن يأذن الوالد بالفطام فى منتصف الثانية من أعمـــارهم . وفيما قررته تلك الشريعة من ذلك ما يطابق الصواب لان البـــلاد الحارة من البلدان التى يموت فيها الاطفال بالامراض المعوية فلبن الام بالنسبة لهم من خير الاغذية الموافقة لهم والمناسبة لحالهم .

واذا لم تكن الام فى حالة من الصحة تسمح لها بمبـــــاشرة ارضاع وليدها فلها أن تتخذ له مرضعا فاذا كانت المرضع احـــدى جوارى البيت عدت لهذا السبب من أفراد الاسرة وكسبت حقوقا مؤكدة تظهر محسوسة فى احترام الابنـــاء الذين أرضعتهم وشـــكر آبائهم لها وحسن جزائهم اياها .

ولا يحمل الاطفال امهاتهم أو مرضعاتهم وهم فى نعـــومة الاظفار عناء كبيرا فى تربيتهن لهم لانهم قليلو البكاء . ولو امتنـــع

أهلوهم من وضعهم فى القماط كما نفعل نحن بأطفالنا لنموا وابتدأوا المشى على أقدامهم منذ الشهر السادس من عمرهم .

وهم يكونون فى الغالب ضعافا نحيلى الابدان اذا ناهــــزوا الثانية أو الثالثة من أعمارهم وتتكور بطونهم كثيرا لرداءة الغذاء ولا شىء فى ملامحهم وهم فى هذا الدور من حياتهم ، يبشر بأنهم سيكونون على شىء من جمال الصورة العربية وقتما يبلغون سن الشـــباب .

وأبناء الطبقة العليا لا يعتنى بحسن لباسهم ، تتعمد والداتهم ذلك فاذا خرجن من دورهن واستصحبنهم نزعن من ثيابهم ما يمكن أن يحكم الناظر به على يسار أهلهم وقدرتهم وجاههم وقاية لهم من عيون الحاسدين . أما أبناء الفقراء فيجردهم أهلهم من الثيــاب بالمرة وكثيرا ما يشاهد الامهات فى الارياف والمدن وهن حامــلات لهم بهذا الشكل على اكتافهن .

٨١ — تربية الاطفـــال

فى الطبقتين العليا والوسطى يربى الاطفال بداخل الحرم حتى يبلغوا السابعة من عمرهم . وللتربية الاولى كما هو معلوم أو كما فى نفس المرء . فمن البدهى اذن أن نترك التربية التى يتلقـــاها المسلمون على هذا الوجه أثرا عميقا فى حياتهم .

وغير منكور أن الاطفال يكتسبون فى داخل الحرم لين العريكة ودماثة الخلق فينتهى بهم الامر الى أن يشبوا على شىء من الرصانة والتحفظ والبعد عن نزق الطفولية وطيشــها والاعيبهـــا . وفى الاسرات الفنية يعود الاطفال آداب المعاشرة والاجتماع عـــلى الاسلوب المقرر فى الدين الاسلامى فلا يبعد أن يقع نظرك عـــلى

غلام فى الخامسة أو السادسة من عمره يدهشك من سلوكه مالا تجده فى خلق الرجل الكبير أو المولى العظيم من الرزانة والسمت والوقار .

وتعمل عملية الختان للطفل وهو فى السادسة من عمره أو قبل هذه السن أو بعدها بيسير وفى الاوان نفسه أو حواليه يعلم الاطفال تلاوة القرآن وكتابة آيه فاذا ناهز الثامنة أو التاسعة خرج من وصاية الحرم فان كان أهله على شىء من الغنى والجاه جاءوا اليه بالاساتذة يلقون عليهم الدروس فى بيوتهم وتصدى آباؤهم لارشادهم الى الواجبات والفروض الدينية من وضوء وصلاة الخ .

والاسلام يقضى أن يتعلم الانسان الصلاة فى السابعة من عمره ويدعو آباءهم الى ضربهم اذا لم يقوموا بفروضها فى العاشرة من أعمارهم . ومتى أشرفوا على تمام الثانية عشرة عهدت اليهم بعض الاعمال العسكرية أو المدنية ليؤدوها بارشاد بعض الحكام وملاحظتهم .

اما الاطفال من أهل الطبقة الدنيا فيرسلون عند بلوغهم السابعة من أعمارهم الى المدارس العامة أى الكتاتيب الملحقة بالمساجد وغيها يتعلمون القراءة والكتابة ثم يخرجون منها لمزاولة التدرب على احدى الصناعات بحيث لا يناهزون الثامنة من العمر الا ولهم قسط فى الاعمال ومشاركة للعاملين فيها . وهم فى الارياف يفيدون أهليهم فائدة جليلة بتسيير الماشية وادارة السواقى والذين يتخصصون من الاطفال لدرس علوم الدين يباشرون تلقيها فى العاشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم . وصفوة القول ان الاطفال يبكرون بمزاولة الاعمال ويربحون منها قوتهم .

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٨٢/٤٠٦١

المطبعة الفنية ــ ت ٩١١٨٦٢

لمحة عامة إلى مصر ٢

يعتبر هذا الكتاب لمحة عامة الى مصر الذى ألفه د · كلوت بك أهم مرجع فى وصف الحياة المصرية خلال الفترة التى تلت الحملة الفرنسية على مصر ، وابتدأت بحكم محمد على باشا ·

والكتاب يتناول أدق التفصيلات عن حياة المصريين وعقائدهم وملبسهم · وعاداتهم وتقاليدهم · كما يتعرض بالتفصيل لسكان مصر · ونظام الحكومة · والموارد الماليه · والزراعة والصناعة والتجارة · وغيرها من الامور ·

وقد رأت دار الموقف العربى أن تقدم هذا المرجع التاريخى النادر فى عدد من الاجزاء ليكون فى متناول الدارسين والمهتمين بالتاريخ الاجتماعى المصرى · وهذا هو ال
كتاب أ · ي · كلوت بك « لمحة عا

والمؤلف كما قدم نفسه فى
على وسام اللجيون دوتور ، من
وعلى وسامات أخرى من در
والدكتور فى الطب والجراحة
الصحة وعضو أكاديمية الطب
واكاديمية العلوم بنابلى ·

